HEKMAH YEMANYA

وجه آخر للهوفان

مجموعة قصصية

أسماء عبدالراضي

وَجهٌ آخرُ للطُّوفان

مجموعة قصصية

حقوق الطبع محفوظة

ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو ترجمته إلى لغة أخرى دون إذن خطي سابق من النّاشر.

الطّبعة الأولى

1446هـ – 2025م

العنوان: وجهٌ آخر للطوفان.

تأليف: أسماء عبدالرَّاضي.

الصفحات: (125صفحة).

النّاشِر: حكمة يمانية.

قياس القطع: 17×24.

رقم المعيار الدولي: 978-625-94970-9-9

حكمة يمانية

HEKMAH YEMANYA

موقع حكمة يمانية

اليمن – تعز

INFO@HEKMAHYEMANYE.COM

WWW.HEKMAHYEMANYA.COM

@HEKMAHYEMANY

وَجهٌ آخرُ للطُّوفَان

مجموعة قصصية

تأليف

أسماء عبدُ الرَّاضي

حكمة يمانية
HEKMAH YEMANYA

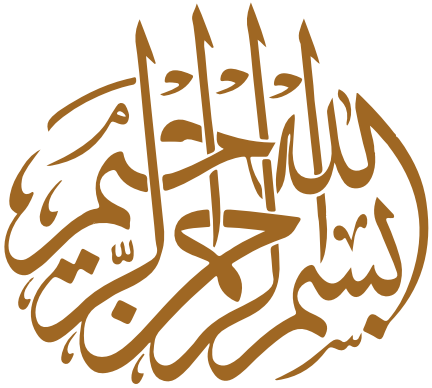
بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

الموضوع	الصفحة
إهداء	7
وجه آخر للطوفان .. همسُ الحُطام المُجتَبى	9
مقدمة	17
أين ذهبت البندقية؟	19
حقيبة ظهر	26
نازح بدرجة طبيب!-	32
حتى زهورنا تُخِيفُهم!	39
حتى زهورنا تُخِيفُهم!	39
مفاتيح العودة	44
مفاتيح العودة	44
وجه آخر للطوفان	49
السَّائرون قسرًا..	53
المخيم	58
خارج نطاق الحياة	63
وثيقة سفر	69
جرعة ألم زائدة	73

الموضوع	الصفحة

أم لقمان 80

العطش 85

حطــام 89

الكابوس 92

فتوى اغتصاب..... 97

أما زلت تسأل لماذا يا أندرو؟ 102

حتّى مطلع النّصر 110

انتفاضة الزيتون 116

غدًا تغرد العصافير 122

إهداء

إلى الذين كشفوا للعالم سوءته، وأروه قبحه رأي العين ..

إلى الذين أثبتوا أن الإنسانية ليست شعارًا يُتغَنّى به ..

إلى مَن جعلونا نرى أنفسَنا أمام أنفسِنا بعين الحقيقة؛ فأدركنا ما نحن فيه من صَغَار..!

إلى فلسطين،

كبارها وكبارها، نسائها ورجالها، سمائها وأرضها، شجرها وحجرها، طيرها وجمادها، ظلّها وحرورها..

أسماء

كـل قيمـة كلمـاتي كانـت في أنهـا تعـويض صـفيق وتافـه لغيـاب السلاح، وأنها تنحدر الآن أمام شروق الرجال الحقيقيين الذين يموتون كل يوم في سبيل شيء أحترمه.

غسّان كنفاني

وجه آخر للطوفان .. همسُ الحُطام المُجتَبى

قضَتْ حكمةُ الله الغالبة أنْ تنبثَّ نفحاتٌ نورانيَّةٌ على أديم الدُّهُور المُغبرَّة؛ فتصير أماراتٍ لأذكياء النَّفس ودقيقِيْ الحسّ، يتعرَّضون لها فتنجلي أرومتُهُم بعد انطفاء، وتُشحذ عزيمتُهُم بعد ثَلَم، وتزكُوْ مِهاجُ قلوبهم من مَسّ نورانيَّة النفحات. وما أنضرَها من نفحة! تلك النفحة التي تُمكِّن المُتعرِّض لها أنْ يهرب من الزيف لاجئًا للحقيقة، وأنْ ينجو من الجور مُصطفًّا في سلك العدالة، وأنْ يصدح بالحق مُستجيرًا من عار النكوص.

وقد تراءت لي مجموعة "وجه آخر للطوفان" باقةً من أندى المشاعر الإنسانية وأخصبها وأنبلها؛ ضمَّتها الأديبة "أسماء عبد الراضي" بموهبة بيِّنةٍ جليَّةٍ؛ تتعرَّض بها لنفحة الطوفان التي أشرقتْ على صفحة أيامنا، لتميز الخبيث من الطيِّب؛ فتمَّ لها المرادُ مُوفَّقةً، فكانت حقًّا وجهًا آخر لطوفان جارف يشمل ضمائر الأنقياء في كل صقع ومِصر. فكأنَّ رُوح التوفيق قد تلبَّستْها فأنطقتْها ما رامَ الجميعُ الإبانة عنه، وذمَّ ما أراد المُرجفون التنفير منه.

"**وجه آخر للطوفان**" اسم مِصداق مُسمَّاه؛ فباقة القصص

المُودَعَة فيها تعتمل بأعمق ما في الطوفان من مشاعر، وأسمى ما فيه من غايات، وأنضر ما فيه من آمال، وأنصع ما فيه من وجه الحق الذي لا يَضِيرُهُ أيُّ تشغيب .. وضعتْ فيه "أسماء" قلائد التقليد وعوائقه؛ وتتبَّعتْ فيه مشاهد الطوفان في عفوِ خاطرٍ، وصدقِ تلهُّفٍ، ورُسُوخِ عزمٍ؛ حتى يستقرَّ في روع قارئها سيرُهُ وسط الجموع بين حطام الصريم!

❋❋❋

تردُّ مجموعة "وجه آخر للطوفان" على المُتَّهِمِين الأدبَ الآنيَّ بالقصور عن الأدب الماضي في التعبير عن أغراضه الحقَّة. فهي مثال لمُسايرة الأدب لواقع أمَّته وشئونها، وملاحقته قضاياه الراسخة في تغيراتها المتتابعة. مثَّلتْ المجموعة -في جُملتها- نوعيْنِ من المُعايشة في الأدب؛ المُعايشة الوقتيَّة الظرفيَّة للحدث، والمُعايشة لبيئة الأحداث من غير مُكوث فيها وارتياد لها. ولعلَّ العنصر الأخير قد وقف عقبةً أمام كثير من الإبداعات السابقة، لكنَّ توفيق هذه المجموعة ومهارة الكاتبة أنقذاه من عَنَتٍ جمٍّ يلحق مثل هذه التجارب الواقعيَّة الشديدة الواقعيَّة التي تفارق مُلابسة الأحداث مكانًا وظرفًا. فجاءت القصص في المجموعة؛ وكأنَّ أوراقها سُطرتْ بين الحُطام في غزة، وكأنَّ كاتبتها

كانت تتسمَّعُ همسات هذا الحطام بين هزيم الحجيم المسيطر.

وبها تُعبِّر الكاتبة عن رغبات الملايين من العرب والمسلمين الذين يسحقهم العجز عن إدراك ذويهم وأهليهم في الأراضي المُحتلَّة المنكوبة؛ وهم يرون الويلات تُسقى بها حُلُوقُ قومٍ مؤمنين، ما طغوا فيها، وما ظلموا، وما يُنقَم عليهم إلا قولُهُم الحق، وتمسُّكُهُم بالأرض وبقضيتهم .. فكان الغليان المحموم، وكان الطوفان، وكان الوجه الآخر للطوفان .. ولعلَّ الكاتبة عبَّرتْ عن هذا جليًّا في كلمات "غسان كنفاني" التي اجتبتها للمقدمة.

❊❊❊

نحن أمام عمل أدبي راده الحدثُ الواقعيُّ المباشرُ؛ فكان من تبعات ذلك أنْ صار البطل العام في المجموعة هو "الحدث"، لا الأشخاص، ولا المكان. للحدث طغيان في المجموعة يفرض سلطانه على تعدُّد الأزمان، وتغيُّر الشخوص، وتحوُّل الأماكن. وهذه الخصيصة الضامَّة لهذه المجموعة القصصيَّة.

ومتى عيَّنَّا الحدث بطلًا، فلا أولى من أن نبيِّن الرُّوح الغالبة على العمل؛ ألا وهي رُوح التأمُّل؛ حيث يتتبع القارئ سلسال التأمُّل المتغاير الجهة، فيلقى تأمُّل البطل للشخصيات الثانويَّة في كل قصة

مُتتابعًا موصولًا، ويلقى تأمُّل الشخصيات بعضها بعضًا في درجة تليه من الوضوح والبُزوغ، ثم يلقى تأمُّل البطل في الحدث، ثم تأمُّله في أثر الحدث على المكان. كذا يشيع التأمُّل في المجموعة؛ حتى تصلح أن تُنصَّبَ رُوحًا للنص كاملًا.

ومتى فرغنا من بطولة الحدث ورُوح التأمل، وحاولنا أن نولي خصائص الفن الخالص في المجموعة اهتمامًا؛ فسيقف أمامنا عنصرُ دقة اختيار الموقف هاديًا وعَلَمًا على هذه المجموعة. ولاختيار الموقف في فن القصة القصيرة مكانة تشبه شرف النَّسب للبشر؛ فعليه تتفتح آفاق القصة، ومنه تتفرع للمُبدع إمكاناتها، وفيه تتفجر أزمَّة الأحداث.

وقد كانت الكاتبة شديدة التوفيق في اجتباء ما اجتبته من مواقف قصصيَّة. حيث اجتبت مواقف حُبلى بالمعاني. ولا يغرَّنَّ القارئَ أنَّ الحدث الحقيقيَّ مُلهِم، فيظنَّ أن الكاتب متى التقط موقفًا أو طرفًا منه نجا؛ هيهات هيهات .. فإن هذا تسطيح لصنعة الكتابة، وكم من حدث هائل نضح عن جنين قصصي مَوْءُود لا خلاق له .. فالعِبرة بالمهارة في اجتباء المواقف، وحُسن الوُلوج لها. ثم زادتْ الكاتبة خصيصتها، فنوَّعتْ بين المواقف؛ فتراوحتْ بين المواقف الهادئة (قصة: أين

ذهبت البندقية؟)، والمواقف المُحتدمة (قصة: العطش)، والمواقف البادئة على مهل ومن بعيد (قصة: خارج نطاق الحياة)، والبادئة على جمر وفي قلب الحدث (قصة: السائرون قسرًا).

ويتعلَّق بالموقف القصصي في المجموعة سمة أخرى، غالبةٌ أيضًا؛ وهي سيولة السرد، من حيث منظور السرد، ومن حيث الضمير المُستخدَم. فكل المجموعة مَصُوغة بالضمير الأول (الضمير الأول هو أن يكتب الشخص عن نفسه بضمير الأنا)، لكنه ضمير سيَّال مُخادع؛ فغالب القصص تبدأ مُوهمةً أن الكاتبة تستخدم الضمير الثالث (ضمير الغيبة؛ وفيه يصف الكاتب الآخرين بضمير ثالث، يرتفع عن شخوص الحدث)؛ ثم يكتشف المُدقِّقُ النظر أن الضمير الذي ظنَّه ثالثًا للغيبة يستقر على لسان البطل؛ ليصير هو راوية القصة. وهي خصيصة أضافت سيولة للمشهد العام في القصص، وأضفتْ ثراءً عليها. كما أن منظور السرد يتأرجح بين الشخوص؛ حتى يغالب القارئَ الوهمُ أنه شائع فيهم، ثم يكتشف المُدقِّق أنه للبطل. وهي من سمات السيولة الغالبة على المجموعة كلها دون استثناء. وقد استخدمت الكاتبة هذه السيولة في إيصال الأحداث إلى نهايتها، وحسن اقتياد القصة إلى آخرها. رغم أن ظني الراجح مستقر أن هذه الخصيصة أبرزتها المهارة والمَلَكة، دُون تعنٍّ ولا تقصُّد.

لكنَّ هذه السيولة لمْ تقد الكاتبة في قصِّها؛ فوُفِّقتْ إلى خُلُوص جسد القصص من أي حشو زائد أو حشد شائن؛ ليخلص لها جسدُ كل قصة نَجِيًّا مُمتلئًا بصحَّة الحدث، حائزًا سمات الاقتصاد المُنجية من تعثُّر الهدف أو إملال القارئ أو تخمة المفاصل الحَدَثِيَّة. كما أن عنصرًا آخر يضيف قيمة للقصص، ويجعلها أقرب للقارئ؛ وهو اجتباء الشخصيات من النماذج البشريَّة من أوسط الناس وآحادهم؛ فليس في القصص سمات البطل الخارق أو المُفارق لحد العادة؛ بل هُم أناس حقيقيون كلَّ الحقيقيَّة، أصابتهم مصيبة العجز والموت، وفجيعة الدمار والتشتُّت.

وأضفى على هذه المكونات الصُّلبة رواءً إجادةُ للهجة المَحكيَّة؛ فرغم أن الكاتبة مصريَّة إلا أنها نجحت في إنطاق الشخصيات بلسانهم حينًا، وبالفصحى حينًا آخر. فنمَّتْ تلك المُراوحة عن حسن قياد للقصص، وتلقائية في تتبُّع الشخصيات على مستوى واقعي. أما السرد والوصف فكانا بلغة فصحى جيدة، زادها ثراءً طلاوةُ الصور المجازيَّة الفرديَّة، التي لاءمتْ الأجواء في كل موقف. فدلَّتْ على التحسُّر، في مثل: "أكلَ الفقدُ ذاكرتها، والتهمت الهمومُ كلَّ قدرةٍ لها على التحمُّل" (قصة: حتى زهورنا تُخيفهم)، ودلَّتْ على الاشتداد في المشهد، في مثل: "الشمسُ تَنُّوْرٌ مُتوهّجٌ، كأنَّ نافذةً من جهنم شرعت أبوابها فوقنا"

(قصة: نازح بدرجة طبيب)، ودلَّتْ على الإيلام، في مثل: "كُلَّما طالتْ الحرب تسربَلَتْ الأيام بالقهر" (قصة: أم لُقمان).

❋ ❋ ❋

وإذا كانت أدوات القهر الإعلاميَّة تُقدِّم لنا -باطراد- صورة البطل اليهودي المُضطهَد، والبطل الأمريكي الخارق؛ فإننا نلقى في مجموعة "وجه آخر للطوفان" صورةً صادقةً للبطل العربي الصامد؛ الذي لمْ يشكُ سيفًا من الليزر، ولمْ يمتشقْ بذلةً حديديَّةً طائرةً، ولم تتسم قسماتُ بدنه ببريق العضلات الممشوقة .. بل بدا بطلًا حقيقيًّا صاحبَ قضيَّةٍ وأرضٍ وعقيدةٍ، ينظر بمسحة سطوةٍ جوهريَّةٍ في عينيه غذَّاها الحقُّ الأصيلُ، مُعلِنًا ثباته الذي زاده الحُطامُ صلابةً، يأبى إلا وجه الحقيقة المُشرق. ولسوف يرضى.

الفقير إلى عفو مولاه/ عبد المنعم أديب

غُرَّة شعبان المُبارك 1446هـ

31 يناير 2025م

مقدمة

يقول النقاد: الواقع لا يصنع قصة.

يشيرون بذلك إلى أهمية الخيال، وسطحيَّة من يكتفي بسرد حدث ما بتفاصيله الحقيقية؛ بحجة أن قصته مستلهمة من (واقع) حدث بالفعل، لأن الواقع قد يكون فاترًا، عاديًّا لا يصنع قصة متوافرة الأركان والعناصر.

لكن واقع غزة كان مختلفًا!

كتبتُ هذه النصوص تأثرًا بما عايشناه من عدوان غاشم على غزة في أعقاب طوفان الأقصى في السابع من أكتوبر/ تشرين الأول 2023م والذي ما زال قائمًا حتى كتابة هذه السطور، ولا يعلم إلا الله أوان دحره. نصوص استلهمت شخوصها من واقع نُقِل إلينا عبر الشاشات. العجيب هنا أن الواقع كان أكثر درامية وفجاجة وأشد قتلًا، واقع غزة أعجز الخيال ووضعه في ورطة، والحقيقة أن القصة هنا صُنعت من نُتَفِه.

فليعذرني النقد والنقاد إذا ما رأوا فيما كتب هنا شيئًا مخالفًا لقواعد القص وأصول القصة القصيرة. كنت أقصّ أحاديث الوجع وبعض حكايات الموت دون النظر لقواعد أو قوانين.

عام على العدوان!

عام على وشك الانقضاء، ولا تزال غزة تعاني ويلات العدوان وعذابات الفقد، يرى أهلها الموت كل ساعة في ثوب مختلف، ولا يزال العالم الجبان يتفرّج ولا يبالي، يشاهد المذابح في بثّ حيّ على الهواء مباشرة ولا يهتز له نبض.

لم أر غزة، ولم أسمع يومًا صوت الرصاص -فضلًا عن الصواريخ والقنابل-، لكن ذلك لا يمنع أن نتحدث عن بعض ما يعانيه أهلنا هناك، في محاولة بائسة لإيصال الصورة أو بعضها.

هذه النصوص مجرد حجر أرميه في ماء راكدة؛ لعله يُحدث صوتًا -ولو خافتًا-، لعله ينقل صورة -ولو باهتةً-، لعله يكون صرخة أسأل الله أن تكون صادقة.

ما كُتِب هنا لا يعبر عن واحد بالمائة من حقيقة ما يحدث في غزة، مصنع الأبطال الحقيقيين، وجه آخر للطوفان الذي غض العالم طرفه عن نتائجه، وعن فاتورة باهظة لم يدفعها سوى المواطن الفلسطيني.

أسماء عبد الراضي

أغسطس 2024م

أين ذهبت البندقية؟

تتراقصُ النّجوم في السّماء فيما يلمعُ القمرُ مصغيًا، كما كلّ ليلة، تختصّنا فيها الجدة خضرة بأُنسِ حكاياتِها ..

تفترشُ عتبةَ بابها بُعَيد صلاةِ العشاء. آب ضيف ثقيل على بيوت المخيّم التي تُشبه عُلب التونة -كما تصِفُها الجدة-. يزدان وجهها بابتسامة صافية رغم ازدحام تجاعيد الحزن على صفحته، تجاعيد تشي بسنواتها الأربع والتسعين. ترتدي إزارًا من الكتّان الأبيض، وعلى رأسها تستقر (بشنيقة) لا تترك مكانها في صيف أو شتاء، تجلس ممددة رجليها، تروي لنا حكايات الأجداد، حكايات قيسارية، وبحر قيسارية بلدتها التي هُجِّرت منها، يوم استحلّتها العصابات إياها، طفلة تعدو خلف أمها بقدمينِ حافيتينِ متّشحتينِ بالدم والدموع، قدمان تحفظان جيدًا طريق العودة، وتنتظرانها كغائبٍ لا محالة راجع!

- صلّوا على النبي يا ولادي..

بهذه الكلمات تستثير شهيّتنا الجائعة لروعة قصصها، وبعد سماعها لتمتمة الجالسين، يرددون الصلاة على النبي، تشرع في الحكي بطريقتها الآسرة:

جلس أبو ياسر على كرسي المقهى مهمومًا، يشرب كوب شاي، لا يبدأ يومه إلا به، من يد الصّبي الذي أضحى عارفًا بمزاجه ومقدار سكّره، أدار صاحب المقهى زر جهاز الراديو فانطلق الصوت. مذهولًا انتبه أبو ياسر، وراح يقلّب نظره في وجوه الجالسين.

شِدّوا زناد المارتيني بصدر العدو

شدوا الزناد

وهيا على الثورة وبالثورة توحدوا

شدوا الزناد..

وهو يستمع إلى الأغنية، شعر بعيون الجالسين تلتهم وجهه، قال لنفسه:

«هم لا يسمعون بالأمر، لا أحد يعرف إلا زوجتي والرجل الغريب»

نسج أبو ياسر لعقله المُقنِعات حتى سلّم بأن ما عزم عليه ليس عيبًا أو حرامًا، هو الحل الوحيد للحصول على مبلغ يمكّنه من السفر إلى الخليج بعد تخلّي أعمامه عنه، ورفضهم إقراضه.

«وهل بيع المارتين[1] هو الحل؟»

(1) بندقية بريطانية قديمة استخدمها الثوار في عملياتهم الفدائية.

سأل نفسه فأجابته:

«هو الحل الذي تمتلكه!»

البندقية التي ورثها أبو ياسر هي آخر ما بحوزته بعد بيعه أثاث بيته قطعة قطعة؛ ليطعم سبعة أفواه مفتوحة على مصراعيها. هو يعتز بالبندقية ويحافظ عليها كتحفة أثرية، ذكرى من جده الذي تشهد هذه البندقية على نضاله مع الفدائيين أيام الإنجليز.

«**أيام وراحت إلى حال سبيلها يا أم ياسر..**»

قال لزوجته محاولًا إقناعها.

«سلامتك يا ابن عمي، شو صاير لك..؟ المارتين شرفنا، حدا ببيع شرفه وتاريخه؟!»

قبل يومين، دخل المقهى غريب تبدو على محيّاه أمارات الغنى، قال إنه مولع بجمع الأنتيكات، واقتناء كل ما هو قديم. تسلّل كالأفعى إلى دماغ أبي ياسر، ولمّا لم يبق في المقهى غيرهما:

«عرفت من الناس أن معك بندقية قديمة من أيام الجدود..»

«المارتين، بندقية جدي، من نوع أصلي بيعجبك..»

«قد ايش عمرها؟»

«يعني قل تسعين سنة..»

«تسعون!»

«وربما أكثر..»

لمعت عينا الرجل؛ وكأنما عثر على كنز ثمين. اتفق معه على موعد يعاين فيه البندقية، ثم يتفقان على الثمن.

مذ قرر بيعها وهو يرى جده في المنام، زاره الليلة الفائتة، كانت نظراته حبلى بكلام كثير، يتمنى أبو ياسر لو يتراجع عن قرار البيع، لكن رغبته في السفر لا رجوع فيها، من أين يأتي بثمن التذكرة إذًا؟

وهو يتفرّس في وجوه الجالسين من أهل الحي، ردد في سرّه:

«لو أن أحدهم يقرضني ثمن التذكرة ويأخذ المارتين بدلًا من الغريب».

بالأمس كان يتحدث إليها، أخبرها بعزمه على بيعها، كان يعلم أنها تفهمه، تفهمه أكثر من زوجته ومن كل أهل الحي، تفهم حاجته للمال الذي شح، تفهم ضعفه أمام الأيدي التي تتناوشه ليل نهار، ولا يملك لها ردًا، احتضنها، وخُيّل إليه أنها مسحت عبرة طفرت من عينيه!

أتى للجلوس على المقهى فور استيقاظه، قبل شروع زوجته في تلاوة تحذيرها اليومي مذ عرفت ما عزم عليه:

«إيّاك تفقد عقلك وتبيع شرفنا يا ابن عمي..»

وها هو الراديو يذكّره بتحذير زوجته، ونظرات جده.

جاءه صوت الأغنية؛ كصرخة مذبوح في النزع الأخير:

وتنظّموا يا أهلنا وتسلّحوا

وكافحوا وتصاعدوا

شدوا الزناد

«أغنية قديمة بعمر جدي وبندقيته، ما الذي ذكّرهم بها الآن؟»

يُخفي عزمه على بيع البندقية لذاك الغريب، يعلم أن أهل الحي سيلومونه، ربما يتهمونه بالخيانة، هم يعتبرونها إرثًا لا يجوز التفريط به، وتاريخًا يشهد على نضالهم منذ ثورة الستة وثلاثين وما قبلها.

هذي هي ثورتنا

وهذا دربنا

حرب الجماهير

كل الجماهير الجماهير حربنا.

كانت الجدة خضرة وهي تغني هذه الأغنية الفلكلورية تؤديها كتلك الفرقة التي سمعتُها تغنيها في بيتنا عبر التلفاز زمان، أيام كان لنا

بيت وتلفاز!

شردت الجدة فارتفع صوتٌ من خلفي يستحثّها على استكمال الحكي:

جاء الغريب حسب الاتفاق، وبينما أبو ياسر في طريقه إلى البيت بصحبته، فوجئ بأهل الحي يتبعونه وقد علا ضجيجهم، غريب. كيف اكتشفوا الأمر؟

- كيف تفكر في بيع المارتين يا (أبو ياسر)؟

شعر بالحرج، تمنّى لو تنشق الأرض وتبتلعه، ازدرد ريقه بصعوبة، وبصوت بالكاد يُسمع قال:

- لو أن أحدكم يقرضني ثمن تذكرة السفر، والله ما أبيعها ..

نظر بعضهم إلى بعض، ودون كلام رجع نفر من أهل الحي وهم يتمتمون، يتعللون بالخوف وقلة ذات اليد، (وغاية ما نملك الدعاء لك يا أبو ياسر، سندعو، من قلوبنا سندعو!).

بينما تنامت أصوات البعض:

- مو إلك وحدك، البندقية ملك الكل.

- والكل إله حصة فيها إذا بعتها!

صُدِم أبو ياسر، وتعالت الأصوات أمام بيته، خرجت زوجته فجأة تصيح، تعلقت برقبته:

- وين المارتين؟ من بعد خروجك الصبح ما لقيتها؟

بحثوا جميعًا عنها، بحث أبو ياسر وزوجته، بحث الرجل الغريب وبحث أهل الحي.. قال أحدهم إنه رأى غريبًا يعدو بها جهة البحر، وقال آخر إنه رأى جد أبي ياسر (المالك الأصلي للبندقية) يحملها ويصعد الجبل!

سكتت الجدة فصُبَّت الأسئلة كالمطر فوق رأسها، لكن سؤالًا واحدًا كان الأكثر إلحاحًا:

- أين ذهبت البندقية؟

اعتادت الجدة الإجابة عن الأسئلة بعد انتهاء قصتها، لكنها هذه المرة راحت تلملم فرشتها وهي تضم إزارها بين ركبتيها، ودون النطق بكلمة واحدة دخلت حجرتها وأغلقت بابها وسط ذهول الجميع!

وظل السؤال عالقًا في سماء المخيم لم يبرحها:

«أين ذهبت البندقية»؟

ولا مجيب!

حقيبة ظهر

ثم استحالت الحقيبةُ جبلًا جاثمًا على ظهري، سرت نحو الفراغ، ألعن الحرب، وأمقت الساعة التي خرجت فيها من تحت الأنقاض.

بين الأشلاء كان وجه أمي يومض من بعيد، صوت أبي لا تخطئه أذني، أنَّات تتكاثر حولي فتنجب عويلًا غير منقطع، لعلّي نائمة الآن، ولعله مجرد كابوس. الآن تأتيني يد أمي تهزّني برقة كي توقظني، لم تأتِ. سمعت صوتًا لا يشبه صوت أمي، لم يكن كابوسًا، كانت الحقيقة، صاحب الصوت ينادي، جربت فتح فمي، بحثت عن لساني، بالكاد خرج صوتي واهنًا:

– عمو إحنا هنا يا عمو..

عادت الحياة إلى حنجرتي، كأسير محرّر للتو انطلقَتْ:

– ميرا.. ميرا عمو ومعي إمي وأبي وسِتّي وأخي كِنان.. وحياة الله تنقذنا يا عمو..

امتلأ فمي ترابًا وقهرًا، رأيت يدًا مبتورة تقبض على قطعة من ملابس أخي، أتكون يد أمي؟ كانت قبيل القصف تجلس على الماكينة

العتيقة -ككل شيء ببيتنا-، أمّا ساق أبي فتبكي صاحبها الذي صار عدمًا!

خلق كثير، ودخان كثيف يحجب السماء، في غمضة عين فقدت البيت والأهل، لم ينجُ سواي وأخي كِنان، وفي غمضة عين أيضًا كان عليَّ التصرّف كأم لطفل في الثالثة، وأنا دون الرابعة عشرة!

من قلب الأنقاض وُلِدنا، وجوهٌ معجونة بالدم، عيونٌ مذعورة تنتفض في محاجرها، وسط اللاهثين يندفع جسدي بغير حول منه، أحمل أخي على كتفي شفقة على قدميه الدقيقتين، وخلف ظهري تستقر حقيبة الظهر خاصّتي، النَّاجي الثالث الذي خرج معنا من تحت الأنقاض.

- ميرا، وين ماما؟

- رايحين لعندها.

- وبابا؟

- معها.

أتصنّع الثبات، وأنا أعطيه إجاباتٍ كاذبة، شعرت بيد أمي تقرص أذني:

«إياكِ والكذب!»

فلتسامحيني يا أمي، أحاول -فقط- الحفاظ على ما تبقى من أخي، يمسح بعينيه وجوه الخلق حوله، يرتجف جسده الضعيف، كان قلبه يفرفط، دقاته تخترق أذني، وجسدي كله.

- بدي ماي ..

من حقيبة الظّهر، أخرجتُ قنّينةً ماء صغيرة، شرب حتى ارتوى، بضع قطرات تبقّت، هممتُ بشربها، لكنّني خِفت تكرار طلبه للماء فتراجعت.

- ميرا، وين ماما؟

- .....

- جوعان!

من الحقيبة التي لا تزال خلف ظهري، أخرجت قطعة خبز كان قد أعطاني إياها أحدُهم قبل قليل، هزّ أخي رأسه ولوى شفته السفلى:

- بدي حليب ..

ما بين حمل ينوء به جسدي النحيل في طريق لا ينتهي، وأخي الجائع، لم أجد أرحب من الدموع، وضعت يدي على خده:

- كِنان، كُل هاي الخبزة حبيبي، بس بنوصل رح نشتري حليب

من الدكان، اتفقنا؟

نظر إلي عيني مباشرة، وكأنما ليكتشف كذبي:

- ومتى بدنا نوصل؟

سؤال آخر لا إجابة له عندي!

يزداد التّدافع، تمرُّ الساعات ثقيلة، أركض مثلما يركض الناس، لا أدرى إلى أين؟ أرهقني المسير، والتحف جسدي بالعرق تحت شمس كانون الذي تقول جدتي عن طقسه (في كانون الأصم، فوت بيتك وانطمّ)!

«إجا كانون يا ستي وما لنا بيت نفوت عليه، ولا أهل يسألوا عنّا».

سألتُ أحد السائرين إلى جانبي:

- احنا وين رايحين عمو؟

لم يجب، يبدو أنه مثلي لا يعلم:

- طيب متى بنوصل عمو؟

مسّد رأس أخي بحنان، بينما تتسابق دمعتان في مقلتيه الغائمتين، قال بأسى:

- هانت يا عمو، هانت.

شعرت بقدميّ تنصهران على الأرض، أشبعتهما الحجارة وخزًا، لم أعد أقوى على حمل كِنان، أنزلته، أمسكت يده، سار إلى جانبي لدقائق، توقّف بعدها فجأة، وانفجر باكيًا.

آه، لو كان بإمكاني أن أبكي معه، أصرخ، وأضرب الأرض بقدمي كما يفعل. حاولت إسكاته، وهدهدة غضبته، **ثم تذكرت كلام أمي:**

«اصبري عليه، بيهدى لحاله بعد شوي..»

أرهقه البكاء، ملّ ركل الأرض بقدميه، فلاذ بحضني، تمامًا كما كان يفعل مع أمي!

- شو رأيك بنحكي حدوتة حلوة؟

وضع إصبعه في فمه، هزّ رأسه والدموع لا تزال متشبثة بعينيه اللتين احمرّ بياضهما، حملته على كتفي وأكملنا المسير، ورحت أحكي له قصّة مقلّدة طريقة أمي المميّزة.

- ميرا، قولي لماما وبابا كِنان زعلان منكم، ما رح يحكي معكم أبدًا أبدًا.

قالها فيما يُنازِلُ النعاس عينيه حتى ظفر بهما.

هجم الليلُ بزمهريره، ينامُ صغيري على كتفي، وحقيبة فارغة إلا

من القهر خلف ظهري، وطريق طويل لا أدرك منتهاه. ما أخشاه الآن أن يطلب أخي طعامًا، لم يعد بالحقيبة سوى قنينة ماء فارغة..

طالت نومته على كتفي، توقفت أتفقده، لا ينطق، ولا ينبض أيضًا.

- عمو، شوف أخي، مشان الله شوف ماله!

بعد أن تحسس جسد أخي، وقرّب أذنه محاولًا سماع دقات قلبه:

- البقاء لله يا عمو..

تركني وأكمل طريقه، جميعهم ساروا كالراكضين نحو الخلاص. وحدي وقفت أنتحب، توقّف أحدهم، حمل أخي، تمتم بكلمات لم أتبين منها حرفًا، فتح الحقيبة، وضع فيها أخي، ثم بيدين متخشبتين ألبسني الحقيبة، وبهدهدة خرساء حثَّني على استكمال المسير!

نازح بدرجة طبيب! -

تأكل شمس تمُّوز رؤوس المصطفّين في انتظار وجبة من «التكيّة»، تشوي أطرافهم كأنّما الجوع الذي يأكل البطون ليس كافيًا. الجميع يترقّب إشارة البدء التي تأخرت قليلًا اليوم، ليس مهمًا، المهم أنها ستأتي، لا بد لها أن تأتي.

أقف وأدوات الاستفهام جميعها تقيم معاركها في رأسي..

صفوف، المشهد هنا صفوف متاخمة لا تتنفس؛ صفّ المخابز، صف الحمام، صف السيارات، صف شحن الهواتف، وصف كهذا الذي أقف فيه الآن، غير أن أشد الصفوف طولًا، كان صف انتظار الفرج!

كيف وصلنا إلى هنا؟

متى تنقشِع الغمّة، ونعود كلًّا إلى طريقه؟

أقف مع الناس في طابور طويل في انتظار لقيمات يُقِمْن صُلْبنا، ماذا أفرق عنهم؟ الجميع هنا سواء، ختم واحد طُبِع على نواصينا لحظة دخولنا، الناس هنا يحملون اسمًا واحدًا لا يعرفون غيره (نازح).

الزمان والمكان، حتى قسمات الوجه تبدو واحدة، ربما يختلفون في شيء واحد؛ وهو أيّ حلم قَبَرَه كل منهم وهو في طريقه إلى هنا؟

دفن البعض حلم تكوين أسرة ملمومة الشمل في بيت يمتلكون مفاتِحه، البعض فقد وظيفته، ومنهنّ من خسرت حَمْلها من فرط الهلع، ربما لم تستطع دفنه كما يليق فألقته على قارعة الطريق كشيء مهمل!

أما عني ..

لحظة!

هل يهمّك أمري؟ هل تريد حقًا معرفة أيّ حلم لي قبره العدوان دون رحمة؟

شرع الرجل الرحيم في توزيع الطعام على الخاوية بطونهم، أزعجه التدافع فزعق زعقتين طالبًا من الجموع نقطة نظام!

نظام؟ هه!

يريد النظام من بطون ظلّت فارغة لأيام دون لقمة خبز يابسة تسدّ الرمق، مع بضعة جروح موزّعة على الجسم، بإمكان الفلسطيني أن يحيا بها دون شكوى، معها جراح في الرُّوح وكدمات طفيفة في صميم

القلب، أي عبث هذا؟ هل الوقت ملائم للتفكير في جراح رُوح أو كدمات قلب؟

أي رُوح؟ وأي قلب؟

هل يذكر أحد الواقفين هنا آخر مرة أكل فيها وجبة كاملة؟

ليكن.. النظام مطلوب على أية حال!

انتظمت الجموع، أفلحت الجهود في جعلها تنتظم قليلًا، ليت جهودهم تفلح دائمًا! نظرتُ أمامي، يتقدّمني في الصف عشرة رؤوس، آه هذا الرقم، بتُّ أكرهه.

عفوًا، لا تسألني لماذا!

الشمسُ تَنُّوْرٌ مُتوهّج، كأنّ نافذة من جهنم شرعت أبوابها فوقنا، بسطتُ كفي على عيني، نظرتُ إلى قرصها المُصَوِّب أشعّته فوق رأسي، رأيتني هناك أجلس في منتصف حلمي المقبور في نعش الحياة، أناقش أستاذي في العملية الجراحية التي قال إنها ستكون أول اختبار حقيقي لي، سيعتمد عليّ كليَّةً في إجرائها، ماذا أقول له الآن وقد حولني العدوان من طالب في سنته الأخيرة من كلية الطب بجامعة إسطنبول إلى نازح في خيمة؟

هل أقول له إنني استغنيت عن شهادته ونزلت سوق العمل مباشرة؟ سأخبره بشيء آخر، عليه أن يتقبله بروح رياضية، وهو أنني أمهر منه؛ ما يفعله أستاذي داخل غرفة مجهّزة، وبأدوات معقّمة أفعله أنا في خيمة تحت الشمس بلا تعقيم أو تخدير، بأقل الإمكانات، وأحيانا بدون هذا الـ(أقل)!

شعرت بيدٍ يابسة تتكئ على ظهري، نظرتُ خلفي فإذا بمُسنٍّ بالكاد تقوى قدماه على حمله، بالأمس كنت أعالج جرحًا بصدره، أذكره جيدًا، لا لشيء مميّز في وجهه، أخبرتك منذ قليل أن الوجوه هنا واحدة، أذكره لأن آثار يدي لا تزال طازجة فوق الضماد المطل برأسه أسفل زيّه الممزّق. ها هو محشور في الزحام غير آبه بإصابة أو ضماد، إنه الجوع يا عزيزي، هل تقدر عليه؟

هل يقدر عليه أحد؟

أمسكت يده وجعلته أمامي في الصف، ليصبح أمامي الآن سبعة، ليس لأن قلبي الرقيق أشفق عليه، لا، أرجوك لا تفهم ذلك عني، فعلتها فقط حتى لا أكون أنا رقم سبعة، هو رقم آخر أضحى مكروهًا بالنسبة لي!

أكمل معروفك ولا تسألني عن السبب ثانية..

نار في صدري تزداد اشتعالًا وأنا أقف هذه الوقفة في انتظار لقمة تحول بيني وبين الموت، وكأنّ ما نحن فيه الآن ليس موتًا، هل أعد نفسي من الأحياء؟

الموت أخف وطأة مما نعيشه، أخف من ألم متجدد غير قابل للشفاء!

مهلًا، لا تصفني بالتشاؤم، فما كنت يومًا كذلك..

لكن، هل ثمة شعاع في الأفق يبعث على الأمل؟

الأمل، لو سألت عنه أحد الواقفين هنا، سيقول:

«سلامتك وتعيش، اقرأ على روحه الفاتحة».

ليس في قطاعنا اليوم سوى نار عمياء تحرق، تحرق ولا تضيء، كل شيء هنا يشعرك باقتراب النهايات، كل شيء يهمس: أزِفَتِ الآزفة.

لا شيء هنا سوى الموت والخراب، ونعيق غربان لا يتوقف!

ثلاثمائة يوم وسط القصف، نفِرّ من زقاق إلى آخر، من حارة ضيّقة إلى أخرى أكثر ضيقًا، ثلاثمائة يوم من الخوف والجوع والعطش، ثلاثمائة يوم من القتل. إنه الموت يا صديقي، هل ثمة تسمية أكثر رعبًا؟!

كان بطنها المتكور أمامها يحكي معاناتها بغير لسان، تقف قبالتي في طابور النساء، قد تكون في شهرها السادس أو السابع على الأكثر، امرأة مثلها تجلس الآن -في عالم موازٍ- على أريكة، تُمسك دفترًا وتدوّن احتياجاتها لليوم الموعود، امرأة مثلها تناجي الآن جنينها، تراقب حركاته المتكررة، هذا الجنين تُرى ماذا سمع؟ بم يشعر الآن وهو في بطن تحرمه أقل احتياجاته؟ هل يشعر بخوف أمه؟ هل يسمع بكاءها؟ التوتر الذي يسري بجسدها كلما سمعت صوت (الزنَّانة)؟ التوتر الذي سيتمخّض عنه في نهاية المطاف ولادةٌ مبكرة، أو ربما فَقْدٌ مبكّر!

تحدثت مع الفتاة التي تقف أمامها، طلبت منها أن تعتني بها حتى تأخذ حصّتها، لا تظن أني فعلت ذلك شفقة أو رقة قلب، بل فعلتها لكوني طبيبًا، هو واجب مهني ليس أكثر!

ذكرتني الجملة الأخيرة بأستاذ لطالما حدثنا عن أخلاق المهنة، بالطبع لم يجل بخاطره أن المرة الأولى التي أذكر فيها مقالته ستكون في طابور للنازحين وهم يتسلمون لقيمات الغوث!

وصلت أخيرًا، نظرةٌ معلبةٌ كطعامه يلقيها على الناس ألقاها عليَّ الرجلُ، وجبة لا بأس بها ستُسكِت الغربان التي تنعِقُ بمعدتي منذ أيام.

على بعد خطوات، كان واقفًا تلتهم عيناه طابورًا ليس بإمكانه إدراك آخره، وقعت عيناه على علب الطعام في يدى، أحسست بجريان لعابه، وسمعت العصافير في معدته تزقزق، بل كانت تنعِقُ كغربان معدتي، ورغم نظرته الجائعة ككل قطعة في جسده، لم يتحرك خطوة واحدة، فتقدمت نحوه.

أريد أن أعطيه الوجبة، لكن أخشى أن تفهمني بشكل خاطئ، سأعطيها له، افهم عني ما شئت، لكن.. إياك أن تعتقد أنني رقيق القلب!

هل تركت الحرب لنا قلوبًا حتى تكون رقيقة؟

حتى زهورنا تُخِيفُهم!

وأنا أحتضن ما تبقّى من جَنَّة جدّي، وأشق به صفوف الوجع على طريق الخذلان، تذكرت ذلك اليوم..

يوم تفتّحت أزهاري التي أعتني بها في أصيصها الزيتي الجميل. قال جدّي إنها ستزهر خلال شهر من زراعتها حال اعتنائي بها، ها هي أينعت وفاح شذاها في البيت كله.

– آه يا ريحانة جدك، أنتِ ما شِفتِ جدك زمان، أيام كانت جنّته جنّة بحق، بها الجوري والقرنفل واللوندا والمينيوم و..، الله يرحم الأيام.

وهو يعدد أنواع الزهور على أصابعه، بدا كمن يتذكر أبناءه الذين فقدهم.

– وين راحت هديك الأيام جدو، وليش ما عادت جنتك زي قبل؟

أطلق لنظره العنان في الفضاء أمامه، تنهّد:

– كانت زارعة الورود لقمة عيش لكتير ناس، هلا القطاع مختنق، منعوا تصدير الورد، صارت زراعته ما بتجيب همّه!

– بيخافوا حتى من ورداتنا جدو؟

احتضنني جدّي، تحفر الهمومُ أخاديد على وجهه، وفوق ثغره تحتضر نصف ابتسامة.

في ذلك اليوم، قرّرتُ تطييبَ خاطرِ أختي، ضربتها أمس لأنها لم تستمع لكلمتي. من جنة جدي جلبت باقة جوري لتكون عربون صلح حال عودتها وأخي من المدرسة، انبهرت أمي بجمال الباقة:

– كجدّك أنتِ تجيدين التعامل بحبٍّ مع الورود!

أحب الورد وأحلم أن تكون لي جنينة، نسخة مصغرة من جنة جدي الواسعة، وعدني جدي بالمساعدة، سيُمدّني بالبذور والشتلات وكل ما أحتاج إليه.

كنتُ أعِدُّ طعام الغداء ساعة أتانا صوت القصف هادرًا، معتادون عليه كأبواق السيارات في الشوارع، لكن شيئًا مختلفًا هذه المرة، كأنه أقوى؟ أعمى؟

حاولت تحديد الناحية التي يأتي منها الصوت، لم أفلح، كان شديدًا يستغرقني من جميع الاتجاهات.

ارتـجّ قلـب أمـي هلعًـا علـى إخـوتي، فهرعـتْ إلـى الشـارع حافيـة بعباءة البيت!

حديث عن قصف المدرسة الابتدائيـة بـدأ يتقـاذف علـى الألسـنة، فركضت أمـي تجاههـا كمـا ركـض النـاس، جريـتُ حـد انقطـاع الـنّفس لألحق بها، وفي يدي باقة الورد، تضرَّجَتْ قدما أمي بالدم جراء الدعس على الحجارة، لا تلتفت، وكأنها فقدت الشعورَ بغير إخوتي.

رأينا الرجال يحملون الجثث، فتأكد الخبر، صغار في عمر الزهـور بزيهم الرمادي المصبوغ بالدماء!

تتابعت ضربات أمّي على صدرها، زادت من حدة جريهـا فـزدت، سـقطت أمـي في الطريـق مـرتين، في كـل مـرة تقـوم تـنفض عنهـا الـتراب وتركض ..

تسـاقطت علـى سـمعي جمـلٌ غيـر قابلـة للنسـيان، رجـل يصـرخ حاملًا جثّة ابنته:

«كنت ناوي أعملها عيد ميلاد!».

وامرأةٌ تنوح، مهرولة خلف الرجال:

«بدي شعرة منه، شعرة واحدة بس قبل ما تدفنوه!»

وأخرى تتمرغ على أكوام الركام:

«يا عمار، حاسس فيني؟ مش رح أمشى قبل ما تطلع من تحت الردم، بستنى ليوم ليومين لسنة لحتى تطلع يا حبة عيني».

وأخرى:

«يا عالم جيبولي بنتي ..»

وآخر:

«إيش عملتلهم هالبنت الصغيرة؟ بعد عشرين سنة، جبتها بعد صبر عشرين سنة، وهلا راحت...».

بعد ساعات من البحث، عثرنا على إخوتي، فقدت أمي وعيها وهي ترى ابنها وابنتها قد تحوّلا إلى أشلاء، راحت تصيح بلا وعي، تجري، تلطم، وتضرب كل ما تقع يدها عليه، ماتت أختي قبل أن أطيب خاطرها بباقة الورد، فوضعتها على قبرها، ومات أخي الذي يصغرها بعام، ماتا قبل تناول الغداء الذي أعددته.

أحاول الإمساك بأمي، أطلب منها التوقف عن الجري واللطم، سدى تذهب محاولاتي فأتعثر بطرف جلبابها ودمعي.

الآن، وبعد عشر سنوات من ذلك اليوم، لم يتبق لي سوى أمي التي أكل الفقد ذاكرتها، والتهمت الهموم كل قدرة لها على التحمّل،

أما جنّة جدي فلم أنقذ منها سوى أصيص به بضع زهرات يتيمات!

أحتضنُ الأصيص بيد، وبالأخرى أدفع الكرسي المتحرك الذي تجلس عليه أمي، كانت تسألني عن وجهتنا، أصمت فتعيد السؤال، لم أعرف بم أجيبها، جبنت عن إخبارها باستشهاد جدّي بعد رفضه الخروج من بيته، هل أخبرها أننا تركنا بيتنا وجئتنا خلفنا كومة تراب كتلك المدرسة، وأننا نازحون الآن نحو المجهول؟!

مفاتيح العودة

يجلس فوق ركام عمره، موفور الصمت، الحسرة في عينيه تعجز فصاحة كلماتي عن تصويرها، ربما تفلح الكاميرا في نقل مشاعر شيخٍ كبير تحوّل بيته إلى كومة تراب، تجوب عيناه المكان ذهبة وأوبة غير مصدقة ما تراه، آيات الفزع تُتلي على وجه خبّأت الهموم قسماته.

- يعوض الله يا عم!

قالها أحدهم ببساطة، هز الشيخ رأسه، تمتم بكلمات لم أفلح في فك شفراتها، كانت ملامحه خارطة قهر ممزّقة، تعزف التجاعيد على جسده ستة وسبعين لحنًا موجعًا، يداه يابستان كغصن جففته شمس الحزن، وضع رأسه بين كفيه المعروقتين، كانت الدموع تسيل من جسده كله إلا عينيه، أشرت للمصور أن ينحّي عنه الكاميرا، ويسلّطها على الركام من حوله، فيما تقدّمت نحوه، أفكر في السؤال الذي يمكن توجيهه إلى كتلة من الوجع، هل أسأله السؤال المكتوب أمامي:

«بم تشعر الآن وأنت ترى بيتك كومة تراب؟»

يا لتفاهة السؤال!

بم يشعر الإنسان ساعة يرى عمره يذر رمادًا في الهواء؟ بم يشعر عندما يسْلُبون منه الروح، الأهل، البيت والذكريات؟!

لأبحث عن سؤال آخر..

لكن، ما قيمة الأسئلة؟

المشهد يحثُّ على الخرس، يسكت أمهر الألسنة وأقدرها على التشدق بشعارات بالية، لا أفصح الآن من الصمت!

بينما أبحث عن سؤال أوجهه إلى الشيخ المنكوب، إذ بسؤال يطفو على سطح ذاكرتي؛ قررت توجيهه إلى زميلي الإنجليزي الذي حدثني غير مرة عن ضرورة استخدام العقل، والقبول بالعيش جنبًا إلى جنب في سلام يرعاه المجتمع الدولي. في آخر مشادة كلامية بيننا وصفني بالمتعنِّت الذي يؤيد العنف ويجري الإرهاب في دمه!

سأسأله، وعليه راغمًا أن يجيبني:

«هل بإمكانه التعايش مع هذا الدمار، مع هذه الشهية المفتوحة للقتل بدم بارد؟»

آه .. ماذا أسألك يا عم؟

عليَّ إرسال شيء إلى أولئك الذين ينتظرون تغطيتي، وأنا أقف

هنا متسمِّرًا أمام شيخ لا أستطيع تجاوزه، أفقدني القدرة على تكوين سؤال!

إلى جانبه جلست، تنهّد بحرقة، طار بفعل حرارة زفيره طير كان ينوح على بقايا بناية مجاورة. قال بثبات يعجزني إدراك كنهه:

– شايف هاد الركام، هاد بيتي، اتنين مثله سقطوا فوق روسنا قبل هيك، بيتي هاد عمره أربعين سنة، فيه ذكرياتي مع زوجتي وأولادي، هلا ضاعت الزوجة والأولاد ومعهم الذكرى، لكن معلش كله فدا فلسطين!

كانت كلماته باكية متشنجة كطفل فاجأه الفِطام، روحه عالقة في فضاء خذلان قديم، بكسرة نفس ينظر إلى عُمْرٍ استحال كومة خراب، وبتسليم عجيب يزدرد مرارة واقع مظلم.

كانت يده تقبض على شيء ما لم أتبينه، قبضة محكمة رغم تراخي جميع جسده، استيقظ فضولي متسائلًا عن الشيء ذي القيمة الذي يقبض عليه بحرص هكذا!

وكأنما سمع سؤالي، بسط كفه ليبرز مفتاحًا أسود قديمًا. قال بصوت هامس كأنما يستعد للإفصاح عن سر عظيم:

– أعلّقه دائمًا برقبتي، لا أخلعه في ليل أو نهار، تعرف إيش هاد؟ هاد مفتاح داري في المجدل، ورثه أبي عن جدي، كنت سأوّرثه لأبنائي، لكنهم ..

لم يكمل، ماتت الكلمات على لسانه فسكت.

هي مفاتيح العودة إذن!

بالأمس كنت أغطي حدثًا بإحدى المخيمات، رأيت عجوزًا تجاوزت التسعين، أرتني مفاتيح بيتها في عسقلان، هُجِّرت منه منذ معارك الثمانية والأربعين، تعلق المفاتيح في رقبتها، تحتفظ بها كما كنز ثمين لا يصح التفريط به، عندما سألتها:

«هل ما يزال لديك أمل في رؤية ذلك اليوم رغم ما حدث ويحدث؟»

قالت:

«يوم العودة قادم ما في عندنا شك يا ابني، لو ما شوفته أنا رح تشوفه أنت، رح يشوفه أحفادي، أو ربما أحفادك!»

نظر إليّ الشيخ نظرة فاحصة قبل أن يسألني:

– فلسطيني يا ولدي؟

هـززت رأسـي، فوجدتـه يعلّـق المفتـاح برقبتـي، ويضـع يـده علـى كتفي:

- إياك تضيّعه، احرسه متل عيونك.

وبخطوات ثابتة مضى يشارك الشـباب في انتشـال الجثـث، سـألت نفسي بينما عيني تشيّعه:

«أي ثبات هذا الذي يملأ قلب الشيخ!»

وجه آخر للطوفان

كان مضطربًا، يتقلّب يَمنة ويَسرة، ثمّة شيء يُقلقه، اعترى المكان ضجيجٌ، فوضى عارمة أعقبها سكون تام، سكون يوحي باقتراب الخلاص.

نمت أظفاره، اكتمل نمو رئتيه، انقباضاتٌ فجائيّةٌ متكررة تزدادُ حدّتها، يركلُ بقدميه وقد تغيّر وضع رأسه ليُصبح للأسفل ..

«أوشك الشهر الثامن على الانقضاء، هو الآن بحجم حبّة الأناناس»

هكذا قالت لزوجها مبتسمة منذ يومين ويدها تتحسّس بطنها.

خيوطٌ دافئةٌ تزحف على ساقيها، تتلوَّى فوقهما كثعبان، وصل إلى أصابع قدميها المتورِّمتين، تشعر بمعاوِل تدقّ أسفل ظهرها وبطنها، تتسوّل النَّفَسَ، يبخلُ الفضاءُ المتشبّع بالدُّخَان عن تسريب بضعة أنفاسٍ نظيفة، يصطدم الظَّلام بعينيها اللاهثتين خلف بصيص نور، يصيبهما بخيبة أمل، يتناهى إلى سمعها صوت القصف يدكُّ المدينة دكّا!

«أتكونُ القيامة؟ ما كنتُ أحسبني أشهدها!»

راحت يدها تتحسّس ما يعجز بصرها عن رؤيته، لمستِ الثّعبان الزّاحف على ساقيها المتشنجتين، شهقت فزعًا:

«أأفقده بعد كل الآلام التي تجرّعتُها لأجل تمامه؟ بعد كلّ سنوات الانتظار، بعد شهور من النّوم على الظّهر؟ بعد خمس وخمسين إبرة؟»

ارتعد قلبها وهي تتحسّس السائل المتدفّق أسفلها، تخيّلت لحظة فقدها لجنينها، بحثتْ في حلقها عن لعاب تبلّل به شفتيها المتشقّقتين، لم تجد!

لطالما همست إليه وهو بعد علقة في بطنها، قصَّت عليه حكايتها مذ تزوّجت أباه قبل عشر شتاءات عجاف، حكت له عن كل التّجارب الفاشلة التي خاضتها في سبيل الحصول على بذرة تثبت في الرحم حتى تقطف فرحة التمام، وعن الطبيب المصري الذي تحقق الأمل على يديه، ونمت البذرة حتى جاءت لحظة القطاف.

يَزرَقُّ وجهُها فيما يزداد احتقانه، تتسارع دقّات قلبها، تحاصرها ظلماتٌ بعضها فوق بعض؛ ظلمة الليل، الأنقاض، والوحدة، وحدها تلعلع أنوار القصف فتزيدها رعبًا.

تحاول استجماع قوّتها، شرعت في تحريك جسدها، جرّبت الجلوس، عليها أن تُخلّص نفسَها بنفسِها.

لكن كيف؟

وفي هذا الوضع؟

تذكّرت كيف فعلتها أمها يوم ولادة أخيها الصغير في ظروف مشابهة، أين أمها الآن؟ أين زوجها؟ الأهل والجيران؟ الجميع تحت الرّكام يُصارع لخلاص روحه، وحدها تصارع لأجل رُوحَيْنِ في آن!

جلست القرفصاء، شرعت في الدفع، بخرقة مزَّعتها من ثوبها راحت تعضُّ عليها بأسنانها، جرّبت وضعية الركوع، استندت على يديها وركبتيها، عادت إلى التقرفص، أبطأت في الدفع ثم واصلت حتى شعرت بالأنسجة تتمدد.

فقدت قدرتها على التماسك فانطرحت على الأرض، كانت عيناها تنغلقان حين رأت شبح إحدى الجارات تقترب، بالكاد استطاعت رفع يدها في إشارة منها للجارة التي هرولت صارخة:

- ادفعي يا نائلة، ادفعي يا ابنتي!

عاد عزمها يشتد، وقعت يدها على رأسه التي بزغت كقمر، تحفّزت، واصلت الضغط لأسفل حتى خرج بقية الجسم، تنفّست

الصّعداء كمن أزال جبلًا عن عاتقه، انطلقت صرخاته لتحتضن دويًّا في الأفق، كلاهما يُنبئ بميلادٍ جديد!

ارتفع صوت الجارة ضاحكة مستبشرة:

– صبي، صبي يا نائلة! ماذا ستسمّينه؟

وهي تحتضنه فوق صدرها:

– طوفان، سأسمّيه طوفان!

السَّائرون قسرًا..

تحذير عاجل:

إلى جميع السكان والنازحين المتواجدين في منطقة جباليا وفي أحياء السلام، النور، تل الزعتر، مشروع بيت لاهيا، معسكر جباليا، عزبة ملين، الروضة، النزهة والجرن، النهضة والزهور.

أنتم متواجدون في منطقة قتال خطيرة!

جيش الدفاع الإسرائيلي سوف يعمل قريبًا بقوة شديدة ضد المنظمات الإرهابية في المنطقة التي تتواجدون فيها.

كل من يتواجد في هذه المناطق يخاطر بحياته وحياة أفراد عائلته.

حرصًا على سلامتكم، نناشدكم الإخلاء فورًا إلى المآوي الموجودة غرب مدينة غزة. ممنوع منعًا باتا الاقتراب من السياج الأمني.

الاقتراب من السياج يعرّض حياتكم وسلامتكم للخطر.

- جيش الدفاع الإسرائيلي

في منشورات كثيفة ألقاها على المخيّم، يطالبنا الجيش الحريص على سلامتنا بالرحيل! لكنه لم يخبرنا: إلى أين؟

أي مآوٍ هذه؟ وكم أسرة ستسع؟

اختلف النّاس حيال هذه المناشير بين قَلِق منها، وغير آبِهٍ بما جاء فيها. وقبيل الفجر بمقدار نصف غفوة مسروقة من قلب الخوف، استحال الورق المبعثر قذائف تدوّي فوق رؤوسنا، سمعنا إطلاقات كثيفة لطائرة مسيرة من نوع (اكواد كابتر)، بدا المخيم كما لو قامت قيامته، كأسراب النمل خرجنا من الجحور نلهث دون تفكير في الوجهة التي سترسو عندها ركائبنا، الفضاء معتمٌ إلا من ضوء القمر القابع تحت غيمة يتفرّج.

أين سأذهب ببناتي؟

برأسه أطل السؤال في وجهي كأفعى مخيفة، نترك البيت الذي تحمينا جدرانه، ونهيم على وجوهنا، إلى أين؟

بدأت رحلتنا من شارع الهوجا، رجال، نساء، كبار، وصغار، كلٌّ يهرول بما استطاع حمله من متاع، ليس بمقدوري السير لمسافات طويلة بفضل عرجة في قدمي اليسرى، يافا ابنتي ذات العشر سنوات، حملت أختها كرمل بسنواتها الأربع، وسِرتُ أجرجرُ الحقيبة وقدمي

العرجاء.

سألتني كرمل عن أصوات القصف، قلت لها إنها أصوات الطيور الكبيرة التي أحكي لها قصتها، هي الآن تحلّق في السماء!

- بس بنوصل رح نحكي القصة حبيبتي..

ابتسمتْ وزال فزعها، بينما نظرت إليّ أختها نظرة ذات معنى، كأنها تعاتبني على كذبتي..

عندما انقطع حذاء صغيرتي، وتُركت قدمها هملًا، شعرت أنني أم عديمة الفائدة، لا تستطيع فعل أبسط الأشياء لبناتها، شعور بمرارة الحنظل في فمي مزّق قلبي بسكين ثَلِم، ولمّا رأيت رجلًا يحمل طفله الرضيع جثّة هامدة وعيناه تقطران دمًا، خَبُرت المعنى الحقيقي للعجز!

رأيت عجوزًا تتوكأ على عصا الضعف، عجوز تهرب من الموت وهي على أعتابه، أهي غريزة البقاء؟ أم أنه الأمل الشريد؟

في الوجوه عزم محيّر، الجميع يعافر، كنّا نواجه وحشًا تخدمه كل وحوش الغابة، نواجهه، نحن العُزَّل، ببسالة وبساطة في آن!

(طفل يبكي وشاب يجري وعجوز يئن، وزنانة فوق الرؤوس لا تمل التحليق وبث الفزع، قصف هنا وتفجير هناك..)

بكلمات منمَّقة ينقل المراسل حالنا عبر نافذته، نافذة يرانا عبرها العالم الجبان ويكتفي بمصمصة الشفاه من خلف شاشات صماء.

صرخت إحدى النساء في وجه الكاميرا:

– الصغار انهد حيلهم، الله يهد حيل العرب وكل اللي بيشوفنا وساكت..

وفتاة خضراء الغصن راحت تصيح:

– الاحتلال قصف دارنا وهجّرنا من مناطقنا، قتلوا ستي وابن عمي، ما ضلناش إشي، وين بدنا نروح؟ يا بتقتلونا وبتريحونا يا إما بتخلصونا من ها القصة كلها.

أدار الكاميرا صَوْبنا فأعرضتُ بوجهي عنها، جف الكلام بحلقي كأنما فقدت النطق فجأةً، صرخت يافا:

– زهقنا يا عالم زهقنا، زهقنا وتعبنا، كل الأطفال زهقت وتعبت حتى الكبار ما عاد فيهم!

كانت مرارة الكلمات في حلقها توحي إلى أي مدى كبرت ابنتي، في بضعة أيام صارت أكبر مما أتخيل.

عند أبي إسكندر بحي الشيخ رضوان، خارت قوانا أمام إحدى مدارس الإيواء، حمدنا الله أن وصلنا إلى منطقة آمنة كما وصفوها..

مئـات الآلاف يتكوّمـون في مسـاحة لا تتّسـع لنصـفهم، في الليـل أتقلّب فوق قطعة من جهنّم، اشتد صـوت الانفجـارات بالخـارج، أنـين النـاس وهمهمـاتهم المرتعـدة لا تسـمح للعـين بسـرقة نصـف غفـوة جديدة، كنت أطرد القلق بأنفاس ابنتيّ، ومـع دنـو صـوت الانفجـارات من الآذان حتى كاد يخترقهـا، تبـادل النّـاس نظـرات الفـزع، أدركنـا أننـا هربنا من موت إلى موت!

امتلأ قلبي رعبًا فاض على وجهي، أمسكت كرمل بيدي:

– ماما، لا تخافي، هاي الطيور الكبيرة، متى بتحكي لي قصتها؟

بعد سؤالها ساد الظلام!

المخيم

«إحنا ليش هونا؟

ليش أنا لمن أقعد بقعد مع عشرين واحد؟

كل هادول عيلتي؟»

أجابتني جدتي المُقعدة التي تحفظ التاريخ كما اسمها:

«لا، هادول لاجئين يا حليمة..»

«ومين السبب في هاد اللجوء ستي؟»

فسمعت منها أول رواية للتغريبة الفلسطينية.

ربما قرأ بعضكم تعريف الأنوروا[1] للمخيم، لكنني أعيش فيه مذ رأت عيني نور الدنيا، لم أخبر مذاق البيت الخاص المغلقة أبوابه على أسرة واحدة، سمعت عنه كأسطورة من زمن ولّى.

كنت في حجرتي الصغيرة داخل المخيم الكبير، حجرة أهرب من ضيقها إلى اتساع الإنترنت ورحابة الفضاء الأزرق، صفحة أنشأتها

(1) وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين.

باسم (يوميات لاجئة في المخيم) تخطّى عدد متابعيها خمسين ألفًا في بضعة أيام بفضل فيديو نشرته مؤخرًا، يحكي عن تجربة إحدى ضحايا كورونا في المخيم، هي خالتي أم تامر، يبدو أن الأمر كان مثيرًا لاهتمام كثيرين، هم لا يعلمون أن في المخيم ما هو أشد فتكًا من كورونا!

حصد الفيديو آلاف (اللايكات) والتعليقات، حتى إنه أصبح (ترند) لعدة أيام، لا أدري ما الذي جعلني (أُشيّره)، لكن هذا ما حدث، أسعدتني نتيجته على أية حال. عشرات الآلاف عرفوا طريقهم إلى صفحتي بعد أن كانت مهجورة إلا من بضعة متابعين يضيق أكثرهم بالقصص التي أكتبها. آه نسيت أن أخبركم أنني أكتب القصة القصيرة، اكتشف موهبتي هذه معلم اللغة العربية عندما كنت في الابتدائية، كان يشيد بموضوعات التعبير خاصتي، ويقول إنها متميزة، ثم كتبت القصة، لكن شيئًا لا أستطيع التخلص منه، وهو أن جُلّ قصصي حزينة، الأصدقاء على صفحتي يضيقون بهذا، وصفني أحدهم بـ (خزان نكد)، وأخرى قالت إنها لن تقرأ لي ثانية لأنني (بلا قلب) لا أُرفق بالقراء.

عجيب أمرهم، ماذا ينتظرون من لاجئة ولدت من أنين الجدران في مخيم؟!

لا ألومهم، فهم لا يعرفون معنى المخيم، حتى المنظمات التي

وضعت تعريفًا للكلمة ظنّت أنها تعرف، لا يعرف المعنى الحقيقي للمخيم إلا سكان المخيم.

أمسكت جهازي اللوحي وقررت أن أكتب لهم هذه المرة تعريفًا للمخيم، ربما يقرّب الصورة إلى أذهانهم قليلًا.

تُعرّف الأونروا المخيم بأنه قطعة من الأرض تم وضعها تحت تصرّف الوكالة من قِبَل الحكومة المضيفة؛ بهدف إسكان اللاجئين الفلسطينيين، وبناء المنشآت للاعتناء بحاجاتهم.

أما أنا حليمة، لاجئة فلسطينية بإحدى المخيمات، تحلم أن تصبح -في عالم صادق مُنْصِف- أديبة معتبرة، فأقول:

المخيم هو فن انتهاك الخصوصية!

هو محاصرة الأزقّة، اختناق البنايات وتكدّسها فوق رأسك بصورة مرعبة.

كتل حجرية لا تتنفس، وصغار لا يعرفون الطفولة..

المخيم أن تباغتك الشيخوخة قبل أن تعيش طفولة أو شباب.

أن تختنق وتختنق دون أن يكون لديك الحق في المطالبة ببضعة أنفاس نظيفة.

المخيم هو اعتيادك النوم في العراء دون شكوى من صهد صيف، أو زمهرير شتاء، أن تشتاق شربة ماء صالحة للاستخدام الآدمي، وتحلم بيوم يمر دون انقطاع الكهرباء.

ثم وثَّقت كلامي ببعض الـ (ريلز).

تفاعل لا بأس به شجَّعني على استغلال الصفحة في إيصال صورة للعالم تعكس بعضًا مما نعيشه؛ أكثر من مئة وستة عشر ألف لاجئ يتكدَّسون فوق بعضهم فيما لا تزيد مساحته عن 1.5 كيلو متر مربع.

بدأت في جمع المعلومات عن مخيمنا، تاريخ نشأته، وموقعه و.. وانطلقت أصوّر بكاميرا هاتفي.

تحدثت عن أزمات سكّان المخيم، الغذاء والدواء، عن البطالة والفقر، عدم صدور تصاريح العمل، عن شباب يقتله شعور العجز والهوان، عن حياتنا التي تنقصها الحياة!

كانت خيبة أملي كبيرة عندما وجدت بضعة (لايكات) لا تُشبِع عصفورًا مكسور الجناح، تفاعل ضعيف جدًا، يبدو أن الموضوع لا يروقهم، لا يزال ينقصني الكثير لأفهمه عن عالم (الميديا) وسكّانه، لا بأس!

في المخيم نحن محبوسون في جيب من جيوب الفقر والتهميش، لا أرخص من أرواحنا التي قد تنتهي في أية لحظة وبأي شكل، يوم نشب حريق بإحدى البنايات في المخيم، بلا سبب واضح، وجدت نفسي دون تفكير أذهب حيث مكان الحريق، وأفتح كاميرا هاتفي لأنقل الصورة (لايف) لمتابعي صفحتي.

على الهواء مباشرة رأى المتابعون نارًا حامية تلتهم الناس والمتاع، حصد الفيديو مئات الآلاف من التعليقات، في دقائق معدودة تخطّى عدد المتابعين المئة ألف!

الآن فهمت ..

لا يتفاعل الناس مع الصور الهادئة مهما كانت بائسة أو كارثية، هم يتحمسون فقط حين تعرض عليهم صورًا ملتهبة!

هل أشعل النّار في المخيّم كل يوم حتى يهتمّوا؟

لكن ..

هل ثمة احتراق أشد مما نحن فيه بالفعل؟

خارج نطاق الحياة

(طوفان الأقصى، عملية شنَّتها المقاومة الفلسطينية فجر اليوم السبت 7 أكتوبر/ تشرين الأول 2023م، وشملت هجومًا بريًّا وبحريًّا وجويًّا، وتسلّلًا للمقاومة إلى عدة مستوطنات في غلاف غزة...)

خبر نقلني من شقّتي في تركيا إلى بيتي في الضفة منذ أكثر من عشرين سنة!

تذكّرت ساعة الفجر التي كُسِر فيها الباب، وفي غمضة عين كانت الكلاب البوليسية في حجرة نومي، لملموا أوراقي وجهاز الحاسوب خاصتي، اقتادوني بجلباب الصلاة، لم يسمحوا لي بتبديل ملابسي، بالكاد تمكّنتُ من انتزاع منديل سترت به شعري.

انهارت زوجة عمي، انطرح عمي من فوق كرسيه المتحرك وهو يصرخ:

- فهمونا لوين واخدين زوجة ابني!

عصبوا عيني، ألقوني في سيارة، أحسست بلسان أحد الكلاب يلعق قدمي المقيدة في أغلالها، وصراخ زوجة عمي يبتعد ويبتعد..

كانت أمي تقول دائمًا:

«احنا أقويا كتير يا ريم، أقوى منهم بكتير يا بنتي!»

كنت في دخيلة نفسي أعجب من قولها، أي قوة ونحن مضطهدون في أرضنا؟ الآن فقط اقتنعت بقولك يا أمي، عندما تأملت حالي؛ امرأة عزلاء ضعيفة، حُبلى في شهرها الثالث، لا تقوى على قتل نملة، مقيدة اليدين والقدمين، وفوق رأسها هذا العدد من الكلاب البوليسية والآدمية!

في زنزانة كالقبر كنت وحدي، ربما لا تكون القبور مرعبة بقدرها، مكان خارج نطاق الحياة، جُحْر تحت الأرض لا تعرف الشمس طريقه، امتلأ رطوبة حد اخضرار جدرانه، لا تزيد مساحته عن ثلاثة أمتار، في الأرض حفرة صغيرة تطلّ منها الفئران والصراصير التي تشاركني النوم على فراش رقيق، وفي السقف ثقوب تنفث هواءً باردًا، عرفت فيما بعد أن هذه الثقوب نفسها تخرج هواءً ساخنًا في الصيف.

لا أعرف ليلًا من نهار، تم تجريدي من كل شيء يربطني بالعالم الخارجي، ساعة يدى، سلسلة كنت أرتديها وحتى خاتم الخطبة، فقط (أقارول) الاعتقال وأنا داخله.

على شفا حفرة من الجنون أصبحت، أتحدث إلى الجدران من حولي، الصنبور، والسقف والأقارول، حتى الصراصير التي شاركتني

الفراش حادثتها، على الجدران ارتسمت وجوهٌ آنست وحدتي، ابتسامة أمي تصبِّرني كعادتها وتخلق من صلب الضيق فرجًا، وجه أبي يقول إنه في ظهري ويؤكد أنني على الطريق الصحيح، نظرات زوجي تنضح شوقًا وتحمل في ثناياها وعدًا بلقاء قريب.

تمر الساعات والأيام، لا أدري كم مر منها، حتى جاء يوم التحقيق..

جلستُ على (كرسي الشبح) كرسي صغير كتلك التي يجلس عليها أطفال الروضة، اثنتان من المجندات وقفتا خلفي، وأمام خمسة من ضباط الشاباك، جلستُ أتصنّع القوة والثبات. صرخ الأول بسؤال عن عناصر من المقاومة وعلاقتي بهم، بينما قال الثاني بنبرة تدعو للتقيؤ، وعيناه تغتالان جسدي بنظرات وقحة:

- مش خايفة نعتدي عليك؟

فيما أردف الثالث:

- مش خايفة نموّت الولد اللي في بطنك؟

ثم جاء صوت الرابع:

- إحنا قصفنا بيتك وموتنا عائلتك.

ارتجف جميع جسدي، بينما يقترب مني الخامس ليريني (فيديو) لزوجي وهو يُعذَّب في زنزانة مجاورة. كل هذا أثناء جلوسي على كرسيٍّ بالكاد يصلح لطفل الروضة، ويداي تنصهران في (الكلبشات) البلاستيكية، شعرت أن بيني وبين الانهيار شعرة، بقوة لم أكن أعلم أني أمتلكها، ربطت تلك الشعرة برقبتي وعلّقتها بسقف الحجرة!

كانت جريمتي في نظرهم هي قلمي، هل أزعجتهم كتاباتي إلى هذا الحد؟

تمر الأيام، ليس في السجن أثقل منها. قضيت فترة حملي أُمَنِّي نفسي بالخروج قبل موعد ولادتي، لكن يبدو أني سأضع مولودي الأول هنا، سيتحرر جنيني من بين أحشائي ليصبح أصغر مسجون خارجها.

وذات صباح جاءني ضابط الأمن ليعطيني ورقة. قال إنها من المحكمة العسكرية العليا، وقفت مذهولة لا أكاد أصدق ما فيها..

سألتني إحدى الأسيرات لما رأت دهشتي:

- خير شو في يا ريم؟

لم يكن كافيًا أن أعيش مدة حملي دون رعاية طبية، دون حضن أمي يهون عليّ آلام الحمل الأول، أو كف زوجي تربت على كتفي، لم

يكن كافيًا أن أضع مولودي دون أم تمسك يدي اليمنى، وأخت تمسك يدي اليسرى، دون زوج يمسح دمعي، وأب ينتظرني بالخارج، لم يكن ذلك كله كافيًا على ما يبدو، فجاء قرار ولادتي مكبّلة اليدين والقدمين أثناء ولادتي بعملية قيصرية!

طعنت على القرار، قُبِل الطعن لكن القرار نُفِّذ رغم ذلك.

بيدين وقدمين مقيدتين في سرير بإحدى المشافي، وضعتُ ابني البكر، أسميته ظافرًا، تيمُّنًا وأملًا في النصر المنتظر.

كان حنانُ الأسيرات ولطفهن بي وبوليدي عوض الله عن كل ما مررت به، لم يكن لابني في المعقل أم واحدة كلهن كنّ أمهاته، كل واحدة منهن رأت فيه ابنها البعيد عنها، وجدتُ بينهنّ الأم والأخت والخالة أيضًا.

خرجت من السجن وظافر في عامه الرابع، تركت خلفي كثيرات يحلمن بالحرية، لم أنس ما حدث، ولكي لا أنسى أبدًا، وثَّقت تجربتي في رواية أسميتها (خمس سنوات خارج نطاق الحياة).

قطع حبل الذكري صوت ظافر، جاء يبشرني:

- ماما روايتك (خمس سنوات خارج نطاق الحياة) فازت في أكبر مسابقة للرواية العربية.

متى تفوز القضية إذا؟

متى ينتصر الحق، وأرى إسراء ومريم وندى ومرح ورويدة وأم سليم، وغيرهن كثيرات..

متى أراهن داخل نطاق الحياة؟

وثيقة سفر

هي لا تشكو ولا تئن بصوت مسموع، لكني أعلم أنها تتألم، هل يمكن لمريض سرطان ألا يتألم؟

احترفت أمي الصمت، مذ أخبرها الطبيب بعلّتها قبل شهرين، لا تتحدث إلا قليلًا، وكأنها فقدت القدرة على الحكي، وهي التي كان حديثها مؤنسي.

كيف أسافر بها إلى مصر؟

أضحى الوصول إلى إجابة هذا السؤال همي الأول، قدّمت كل الأوراق المطلوبة لاستخراج وثيقة سفر إلى مصر، خمسة أسابيع مرّت، كانت عينا أمي تستجدي الجالسين على مكاتبهم، هؤلاء لا يشعرون يا أمي، كخُشُب مسنّدة هم، ينفّذون التعليمات بآلية تامة.

ثم جاءت الحرب (وزادت الطينة بلّة) على قول أمي!

دُمّر بيتنا في المخيم، حتى بيوت المخيم استكثروها علينا، نزحنا جنوبًا، ولا تزال أمي تتألم في صمت، بين آلام المرض والنزوح والإقامة في خيمة من النايلون في هذا القيظ بماذا يمكن لمريض

سرطان أن يشعر؟

نهار الصيف في الخيام نار مسعّرة تلتهم أخضرك ويابسك، حلمك المستحيل فيه شربة ماء باردة، والليل كالغول في حواديت الجدات، هكذا هي الحرب لمن لا يعرفها، خواء وصمت إلا من همهمات الموت.

وحدُنا كنا نواسي وحدَنا، وحدُنا بقينا ندفع وحدَنا، تخلى الإخوة والجيران وبقي أهل القطاع مقطوعين من كل عون.

للمرة التي لا أذكر رقمها طُلِب منّا الرحيل، للمرة التي لا أذكر رقمها نزحنا باحثين عن منطقة آمنة في بلد أضحى لغمًا كبيرًا، في كل دعسة على أرضه يتخفّى شبح الموت.

وجدتُ أخيرًا سِمسارًا بإمكانه انتشالي وأمي من هذا الجحيم، طلب الرجل ثلاثة آلاف دولار، بعد يومين أصبحت الثلاثة خمسة، وسبعة و..!

بدا لي الأمر كمزحة مضحكة حد البكاء، فكل ما ادخرت سلفًا أكلته الحرب في أيام، وإن لم تأكله فما كان ليكفي.

(شخلل علشان تعدي)

هل تذكرون هذه الجملة؟

قالها فنان لا أذكر اسمه في أحد الأفلام، لم تعد مجرد جملة كوميدية في فيلم، بل هذا هو الوضع على المعبر الآن.

من يملك المال (يشخلل) جيبه ويمر، ولا عزاء لأصحاب الجيوب التي لا تتقن (الشخللة)، على قول الختيارة التي كانت تزورنا دايما (البراطيل بتحل السراويل).

يوم سألني صديقي الاسكتلندي إيان عبر فيسبوك عن أحوالنا، حكيتُ له عن مرض أمي، ورغبتي في السفر بها إلى مصر، وعدني بتوفير المال المطلوب، في بداية الأمر ظننته يمزح، لكنه اتصل بعد يومين يطلب بعض الأوراق، قال إنه جمع ما يكفي لسفرنا من خلال (التمويل التشاركي crowd funding) عبر موقع (جست جيفينج Just Giving)!

لم أصدّق، اخترتُ ألّا أصدق حتى لا أتعلّق بأمل كاذب، وإمعانًا في الإحباط قُطِع الإنترنت فانقطع الخيط الذي يصلني بإيان.

تمرّ أيامنا تحت القصف ثقيلة، تعانق أمي آلامها دون شكوى، وأتوحّد أنا مع عجزي، أراها تذبل كزهرة تُرِكَت بغير ماء، بتَرت الحرب يدي وقيّدت قدمي بقيد من نار يأكل مفاصلي، ويُغذّي عجزي!

كنت أقف في طابور طويل أنتظر دوري في شحن الهاتف عندما وصلتني رسالة هاتفية من رقم مصري باليوم والساعة التي عليّ التوجه فيها إلى معبر رفح، فعرفت إن إيان صدقني الوعد.

فرحت أمي عندما أخبرتها فرحًا صامتًا كوجعها.

وعلى المعبر، فوق ذلك الخط الفاصل بين الحياة والموت، نودي علينا أن ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين، وفوق ذلك الخط الفاصل أيضًا لفظت أمي آخر أنفاس الصبر.

المهم أنها لفظتها بصمت، دون أن تزعج أحدًا.

جرعة ألم زائدة

أطلَّت الإعلامية اللامعة على الشاشة مرحّبة بضيفها، الطبيب الفرنسي (من أصل جزائري) العائد من غزة، ثم استهلّت حوارها:

– احك لنا دكتور، كيف سافرت إلى غزة؟ وكيف الوضع هناك؟ من فضلك انقل للسادة المشاهدين صورة حية لما رأيت هناك!

سافرت رغم غضب زوجتي، هي تقدّر رغبتي في الذهاب، لكن مذ مرضت ابنتنا، اختلت موازين الأمور لديها، أتفهّم ذلك، لكن سفري إلى فلسطين ضمن الوفد الطبي أصبح قرارًا غير قابل للنقاش.

أول ما لفت انتباهي بعد عبورنا معبر رفح إلى غزة كان كثرة النازحين الذين اكتظ بهم المكان، رأيت مئات العربات مليئة بالناس والبضائع، كنت أشارك في اجتماعات عبر الإنترنت مع أطباء موجودين في غزة منذ بداية العدوان، وكنت أعدّ نفسي لما سأراه هناك. لكنني رأيت في المشفى بعد وصولي أفظع الإصابات التي لم أتوقع مشاهدتها في حياتي المهنية. غزة كانت جحيمًا.

قطاع غزة / مستشفى ...

يناير/ كانون الثاني ٢٠٢٤م

كان المشفى يعمل بأقل الإمكانات، وسط هجمة حادة من الحالات الحرجة التي تحتاج إلى تدخل جراحي سريع، المشهد يفوق خيال مخرجي هوليود، كنت أتصنع الثبات طوال الوقت، حتى لا أنهار في وضع يجبرك على الانهيار جبرًا.

المكان كله اكتسى بالدم، الاستقبال، حجرات الكشف، الأسرّة، وردهات المشفى التي تحوّلت إلى ملجأ للنازحين، لم نكن نعرف النوم إلا اختلاسًا، نسمع القنابل المتفجّرة من حين لآخر، لا يوجد ما يكفي من الأدوية، انتشار العدوى وتعفن الجراح بات أمرًا محتومًا.

لم يسبق لي أن رأيت مثل هذه الكارثة الإنسانيّة، في جميع الحروب هناك دائمًا طريقة لمغادرة المدنيين مناطق النزاع، من بين جميع الصراعات التي شهدتها في الكونغو وإثيوبيا وأفغانستان وسوريا واليمن، هذا هو الصراع الوحيد الذي لا يستطيع السكان فيه حماية أنفسهم وأطفالهم.

أكثر من ثلثي الحالات التي تصل المشفى كانت لنساء وأطفال، عبارة عن جروح مع كسور مفتوحة استدعت البتر في كثير من الأحيان،

فضلًا عن الحروق الكثيرة والتمزّق الشديد في الأطراف، ذات يوم كان عليّ معالجة طفل في الثامنة، في عمر ابنتي تقريبًا، دخل المشفى بكسر مفتوح، كان ملقى على الأرض في غرفة الطوارئ لم يكن هناك عدد كاف من الأطباء للاعتناء به، لم يكن معه أحد من عائلته، ولأنه لم تكن ثمة أسرّة أو نقالات كافية، كان علينا إجراء التدخل الطبي على الأرض، المطلوب تثبيت اليد ببلاتين بدون بنج، لأن مسكنات الألم القوية مثل المورفين بدأت تنفد!

كان الطفل يبكي وينادي والديه اللذين استشهدا في الحرب الطاحنة بالخارج.

ما الذي أوصلنا إلى هذه النقطة؟

على عاتق من يقع إثم ما يحدث؟

أسئلة منطقية ومشروعة، لكن المشهد في غزة كان عبثيًّا تمامًا، لا علاقة له بمنطق أو شرع.

تنهال أفواج المصابين، تنهمر كالمطر فوق الرؤوس، أعداد تفوق طاقة المشفى بصورة تجعلك قاب قوسين أو أدنى من الجنون، لم يكن هناك شبر واحد من المشفى خاليًا من البشر، ثمّة أشخاص بحاجة إلى رعاية طبية ليس في مبنى المشفى فقط بل حوله أيضًا، تم نصب

خيام في محيط المشفى المكتظ بالأطفال المصابين بحروق خطيرة وبتر في الأطراف، معدات المشفى ليست كافية لمثل هذا العدد الكبير، القدرة الاستيعابية للمشفى كانت ٣٠٠٪ وهناك أشخاص ينتظرون العلاج في كل مكان.

النساء في كل مكان، في المستشفيات بجانب أسرّة أولادهن الملطخين بالدماء، وفي الطرقات يحملن أطفالهن وقت الفرار، وفي الخيام يصنعن الخبز ويغسلن الملابس ..

ذات هجوم أعمى أنجب مئات الضحايا والمصابين، كانت من بينهم امرأة جاءت بجرح خطير في يدها اليمنى، تتطلّب حالتها تنظيف اليد ومعالجتها أو البتر، فقر الإمكانات يضعنا في موقف لا نُحسد عليه، يصيب ضميرنا المهني في مقتل، ويلقي بما تعلّمناه في أقرب سلة مهملات!

«بنتي بتحب الحلويات كتير من إيدي، هقدر أعملها حلويات مرة تانية يا دكتور..؟»

عندما سألتني هذا السؤال انفرط عقد الصبر الذي كنت أجمع حباته عبثًا.

الشيء الملفت والذي أود الحديث عنه، هو الأطباء

الفلسطينيون، رغم كل الظروف القاسية يواصلون العمل ببسالة وصمود، لا يشكون حالهم لأحد، لا يفصحون عما بداخلهم؛ لأنهم في حالة حداد جماعي، يُغرقون أنفسهم في العمل فقط. خلال أسبوعين قضيتهما هناك، كنت أرى كل صباح طائرات بدون طيار تحلق فوق المشفى، وأرى زملائي وهم يستعدون للصلاة، تقريبًا صلاة الفجر، كم أحسدهم على ثباتهم وتسليمهم! هدوء عجيب، بعضهم استشهد، ومنهم من دُمّر بيته، أحد أصدقائي هناك كان طبيب أطفال في خان يونس، استشهد هو وأطفاله وزوجته.

امتلأت عينا الطبيب الضيف بالدموع، لم يعد بإمكانه حبسها أكثر، فجرت على وجنتيه، بعد لحظات انتظرتها الإعلامية عمدًا، ساعدها المخرج بإدخال موسيقى مؤثرة تزيد حبكة المشهد وتدر المشاهدات درًّا، قالت الإعلامية اللامعة:

- أعزاءنا المشاهدين، فاصل قصير ونعود إليكم لاستكمال حوارنا، انتظرونا.

عاد البث من جديد بعد فاصلهم غير القصير، وأعادت الإعلامية الترحيب بضيفها الذي استطرد:

هم منهكون في عمل وضغط مستمر منذ أربعة أشهر، بقي الطبيب

الفلسطيني خلالها على رأس عمله ولم يغادر، وحتى أولئك الذين اعتقلوا رجعوا إلى مزاولة مهنتهم مباشرة بعد إطلاق سراحهم.

نفد الشاش الذي كنا نستخدمه لتضميد الجروح وفي اليوم التالي نفد المورفين تمامًا والذي كنا نستخدمه فقط مع الحالات الأشد خطورة، بعدها توالى نفاد الأشياء، بعد أسبوعين من الفزع والعمل تحت ضغط لا يحتمله إنسان عدت من غزة، أغلق المشفى أبوابه بعد نفاد كل وسائل الحياة بداخله.

– ما هي أكثر الحالات التي تركت علامة في ذهنك دكتور؟ حالة لن تنساها.

صدقيني، كل حالة في غزة هي حالة لن تُنسى، كل شهيد كل مصاب، ليسوا مجرد أرقام، لكل واحد منهم قصة وحياة نُزِعت منه نزعًا، لكن.. إجابة عن سؤالك، هناك حالتان لا أنساهما أبدًا..

الأولى كانت لامرأة قد تجاوزت الأربعين بعام واحد، تحمل بين أحشائها بذرة مولودها الأول، الذي حملت به بعد رحلة انتظار دامت عشرين سنة، جاءت بإصابة يمكنني، في بيئة أخرى وظروف مغايرة، علاجها بسهولة، لكن في غزة وتحت القصف الأهوج، لم يكن أمامي سوى استئصال الرحم لأحافظ على حياتها، أنتِ امرأة وتدركين معنى

استئصال الرحم لامرأة تحمل بين أحشائها الفرصة الأولى والأخيرة لسماع كلمة ماما!

كان زوجها بالخارج ثابتًا راضيًا، يردد:

«أهم إشي صحّتها، مش هي بخير؟ أهم إشي صحّتها»

تعمدت عدم رؤيتها بعدما أفاقت من الغيبوبة، طلبت منه عدم إخبارها الآن، ليكن ذلك بعد تعافيها على الأقل.

الحالة الثانية كانت ديما، صبية دون العشرين، دخلت الدبابة خيمتها فهرست جسدها كما حبة بطاطا، أصبح نصف الجسد منزوع الجلد، خلال بضعة أيام خضعت الفتاة لثلاث عمليات، علمتني ديما دروسًا لم أتعلمها خلال عشرين عامًا من ممارسة الطب، كان صبرها شيئًا عجبًا، لديها يقين مدهش، إيمان عجيب عجزت عن إدراك سرّه، ماتت ديما بعد أيام من العذاب، تألمت بشكل لا يحتمل، لم يكن هناك بنج كاف لمواجهة الألم، ألم لا يتحمله بشر، كيف تتحمله صبية في سنها..؟!

ماتت ديما بجرعة ألم زائدة!

أم لقمان

مرة أخرى تحمل أم لقمان بقايا مطبخها وتنزح، لكنها لم تنقذ – هذه المرة– سوى ثلاثة صحون بائسة!

عُرفت أم لقمان بطيب أكلاتها، يشهد بذلك سكان البناية التي تقطن في شقّة بطابقها الأرضي رفقة وحيدها لقمان، تبيع الأكلات التي تعدّها بناء على طلب أصحابها، اشتهرت بـ (نَفَسِها الحلو) في الحيّ كلّه حتى صار أهله زبائنها.

هل رأيتم امرأة توشوش صحونها؟

قد يبدو هذا غريبًا، لكن ثمّة علاقة عجيبة بين تلك المرأة ومطبخها؛ فهي تلاطف مقادير طبخاتها، وتدردش مع أوانيها، تصنع المخبوزات من طحين تبثُّه شكواها، فيهبها من بياضِه نفحةً تطيّب قلبها، تعدّ (المسخّن) بدجاجات ربّتها على يدها، تعرفها عز المعرفة، وخضروات زرعتها في حديقتها الصغيرة، راقبت نموّها يومًا بعد يوم، (المفتول والمنسف والمجدّرة والتبولة و..) أكلات تطبخها أم لقمان بحبّ مثلما يرسم فنان لوحة أو يكتب شاعر قصيدة!

في حـرب 2008م استشـهد أبـو لقمـان مخلِّفًـا أرملـة في ربيعهـا الثلاثين، مضرب أمثال النـاس في الجمـال، وطفـلًا في الرابعـة، أغلقـت أمه باب قلبها على تربيته، ورفضت كل عرض يثنيها عـن ذلـك. اليـوم، بعد خمس عشرة سنة من الشقاء، اشتد عودها ليسع قائمـة مـن الهمـوم تقول إنها تهون كلّما ملأت عينيها من لقمان ومطبخها!

تغيّر كل شيء دفعة واحدة، امتنعت روائح الطعام عن مغازلة أنف لقمان، توقفت وشوشات أم لقمان لمطبخهـا الـذي هُـدِم، عنـدما دقّـت حرب جديـدة طبولهـا فـوق رأسـها فهمـت أم لقمـان أن لقمـان لـم يعـد صغيرًا.

في الحـرب صـارت أم لقمـان تطـبخ لأحيـاء كاملـة، لكـل قـاطني الخيـام، تصـنع كـل شـيء مـن لا شـيء، مـن مـاء وبقايـا طحـين تصـنع أكلات عدة، كلّها طيبة، في حـرب فائتـة صـنعت للأطفـال خبـزًا أسـموه (خبز الحرب).

– والله زاكي، زاكي كتير يا أم لقمان ..

العجيب أنهم بعد الحرب صاروا يطلبونه.

أربعة حروب تناوبت على قلبها المتعـب، في كـل واحـدة كـان لهـا فقيد تختطفه، أب، أخ، وزوج. ظلت صامدة، فيما جاءت هذه الأخيرة

لتجعلها ثكلى، موت لقمان قصم ظهرها، مهما حاولت إخفاء حزنها خلف كلماتها:

«أم الشهيد أنا صرت، يا سعدي..»

الوجع الكامن في عينيها الضيقتين ينعكس ظله في ابتسامتها، يُنبيك عن مرارة تلوكها في الخفاء، يا لقلوب الأمهات حين يحترفن الصبر، تتحوّل قلوبهن ساعتئذ إلى خزّان إيمان لا ينفد ..

كلما طالت الحرب تسربلت الأيام بالقهر، بالأمس وزعوا حِرامات خفيفة، كانت الحُمّى تنهش جسد أم لقمان النحيل، لكنها تبدو كرمح مغروس في قلب الصحراء، لفت الحِرام على جسد طفل نائم بجانبها، وبقيت تقاوم أوجاع الحمى وبرد شباط الخبّاط، أيصح أن يكون غير ذلك؟ نزحت أم لقمان وجيرانها مرتين وهو لا يزال بعد في منتصفه!

طنجرة كبيرة وبضعة أطباق حزينة، هو كل ما استطاعت إنقاذه من مطبخها هذه المرة، كانت اليوم توشوش بقاياه، تخبرها بقرب اجتماعهما في مطبخ يليق بهما، تهدهد وحشة صحونها كما تصبّر الأمُّ صغيرَها باقتراب إنضاج الطعام.

- الحرب غول نَهِم لا يشبع، يأكل الأرض والمال والعيال، ومطبخي ..

تقولها أم لقمان لكل من أتاها سائلًا عن رائحة طعامها التي اختفت بعد أن كانت تؤنس أهل الخيام.

لم تعد أم لقمان تطبخ شيئًا، لم يعد هناك ما يُطبَخ، فكّرت، هل تستسلم لهذا الواقع؟ وطنجرتها؟ وصحونها؟ هل تتركها بلا فائدة هكذا؟ هذا ما لا يتحمله قلبها، مطبخها هو سر تماسكها حتى الآن، لن تستطيع العيش إن فقدت ما تبقى منه.

أخذت بقايا مطبخها وانطلقت نحو أقرب تكيّة، شاركت في صنع الطعام لأعداد أكثر، تعمل حتى يشتد حَيْلُها، نعم حَيْلُها يشتد بين الطناجر والصحون، تعود لوجهها نضارته حين ترى الناس يأكلون مما أعدت.

لكن الحرب أبت أن تديم عليها نضارتها!

في ساعة الفجر التي تبدأ فيها أم لقمان بتحضير أوانيها، رأت الطائرات تزأر فوق الخيام تحمل النذر، اشتعلت الخيام وتفرق قاطنوها، مرة أخرى تحمل أم لقمان بقايا مطبخها وتنزح، لكنها لم تنقذ هذه المرة سوى ثلاثة صحون بائسة!

أم لقمان صانعة الطعام بكفاءة تضاهي أشهر (شيف) عزّ عليها رؤية صحونها حزينة فارغة، كانت تغسلها كل يوم بدموع ذكية.

أوصت صحونها بالصبر، طال انتظار الصحون لـزاد يحيي الرمـاد تحتهـا حتـى هاجمهـا الصّـدأ، ظلّـت أم لقمـان تحـارب الصّـدأ وتصـبّر أوانيها، لكنها لا تدري.. إلى متي بإمكانها الصمود وحدها؟

فهل تدرون..؟

العطش

مذ نام العالم، وسُجِّلت الإنسانية في زمرة الغائبين، أصبح للموت في بلدتي صوت يقطّع نياط القلب، ولون كظلمة الليل، ورائحة لا تنقطع!

ما بين نومنا واليقظة بضع ساعات، بضع ساعات تبدّل فيها وجه البلدة، بالأمس كانت تنبِض بالحياة قبل أن يفاجئها الموت على قارعة الخذلان، عندما وطأت قدم الموت أرض بلدتي، احتضنها كعاشق يأبى فراقها ..

في كل يوم يرتدي الموت في بلدتي ثوبًا جديدًا كعروس تحتفي بزوجها، تجده قذائف تمطر فوق رؤوسنا بلا انقطاع كألعاب نارية في احتفال كبير، نارية كانت لكنها ليست ألعابًا!

وفي يوم آخر، تراه جوعًا ينهش الأمعاء بلا هوادة، فيغريك بأكل أي شيء، ملعونة غريزة البقاء حين تقودنا كالقطيع.

بالأمس ارتدى الموت ثوب العطش وراح يجوب بلدتي، اختفى الماء كلص احترف الفرار من العدالة، تكدّرت منابعه، ثم جفّت، حتى

حلوق الناس جفّت، تشقّقت شفاههم، تيبَّست أحبالهم الصوتية فلم تعد قادرة على القيام بمهمتها، الحصول على قطرة ماء أضحى حلمًا، والعربات القادمة لا تكفي لسد حاجة القطاع.

في مكان آخر، لو سألت أحدهم عن آخر مرة تحمّم فيها؟ عن آخر مرة تناول فيها شربة ماء باردة في هذا القيظ؟

بالطبع يذكر .. أنا لا أذكر، كل من هنا لا يذكرون!

ربّما جرّب، أحدهم هذا أو غيره، الصوم لساعات في الصيف، لكن هل جرّب ذلك لأيام وأسابيع؟

هل رأى الموت جوعًا وعطشًا رأي العين؟

جاءني صغيري شاكيًا عطشه، أبوك أيضًا جفّ حلقه يا صغيري، أعطيته قنينة بها بضع رشفات أكتنزها من أول أمس، كانت بالنسبة له كحلوى الآيس كريم قبل الحرب، الآن حلواه هذه محرمة دوليًّا على أطفال غزة.

تسألني ابنتي التي خسرت فرصة إتمام دراستها في مصر:

- أليس الموت أرحم مما نحن فيه يا أبي؟

الموت أرحم، بالطبع أرحم.

أرحم من العجز الذي بات كأفعى سوداء مخيفة، تتلوى عارضة رقصتها الأخيرة فوق جثثنا، أفعى تُفرغ سمّها في وجوه الآباء كل يوم وهم يرون أولادهم يُدهسون تحت أقدام العَوَز لا يملكون لهم شربة ماء..

شربة ماء!

دموع الأطفال جفّت، أضحى بكاؤهم بغير دموع، التصقت أفواههم ببعضها، الوجوه تبدّلت كأن الناس في بلدتي ليست هي الناس التي أعرفها، وجه البلدة كلّه تبدّل، أي سارق سرق بلدتنا ذات غفلة وهرب؟

غابت العربة المحمّلة بخزّانات المياه لأيام، هل سرقها سارق هي الأخرى؟ أم ضلت طريقها؟ أم عجز العالم كله عن إدخال شربة ماء؟

أي عالم عاجز هذا؟!

قُصِف ما تبقّى من جدران نحتمي بها من شمس القهر، فَرَدَت لنا الخيام أجنحتها الملتهبة، العطش الآن يحاصرنا كصياد ماهر يتحيّن الفرص للإيقاع بفريسته، وجوه الناس تشقّقت، تقشّر الجلد، ما عاد فينا أبيض أو أسود، إما مائل للحمرة أو مائل للرمادي!

جاءت العربة بعد غياب، عليّ الوقوف في طابور طويل، لكن الطابور استحال فجأةً كتلة من اللحم تتصارع، أفواهٌ يبّسها العطش، ووجوهٌ جفاها العرق وعيونٌ حُرِمت نعمة الدموع..

الرجل الذي يوزّع الماء يقوم بتصوير الناس حاملين أوانيهم التي تتلهّف ملامسة الماء، يطلب من البعض كلمة شكر للدولة صاحبة الإعانة، لا بد أن يرسل (فيديو) هكذا يطلب البعض، فيديو نظهر فيه موتى أحيتنا عربة الماء هذه، نحن بالفعل موتى، لكن هل أحيت العربة موتنا؟

العطش كان قد استبدّ بالناس، أحبالهم الصوتية المتهالكة بالكاد تلوك حروفًا متناثرة، أتى دوري بعد أن صار حلقي قطعة أسفلت متوهِّجة، تمنيت أن يمررني ولا يطلب مني قول شيء، لكنه طلب، غلبني الكلام، كنت أشير بيدي، وأنا أعطي الرجل السطل، لم يعجبه، راح يناقشني ويقنعني بضرورة قول كلمة شكر.

ألا تخبر ملامح وجهي بحالي؟ فكّرت للحظة في البصق عليه، لكني تراجعت، ما ذنبه؟ صوت داخلي بالكاد أسمع همهمته، قال لي: دعك منه.

تركته وانصرفت أصارع عطشي بإباء يائس مكلوم، فوجئت به يلحقني ممسكًا بالسطل بعد أن ملأه، يقبَّل رأسي ويقسم عليّ أن آخذه..

حطـام

بينما أصارع أمواج الرماد الذي كاد يطبق على أنفاسي، كان قلبي المحاصر يقتات النبض، استحال بياض فستاني سوادًا بلون أيامنا تحت الحصار، تتصاعد ألسنة الدخان لتطال السماء، وتنتحر أحلامنا في نهار يوم لم تطلع له شمس.

أمي.. أين أمي؟

آخر ما أتذكره.. جلوسها في صحن الدار تقرأ وردها اليومي، كنت أجلس إلى جوارها أذاكر دروسي، والعصافير تعزف نغمة الصباح فوق شجرة التوت، فجأة طارت العصافير فزعًا على إثر دوي الانفجارات، ثم .. لا أذكر شيئا بعدها..

أمي!

حتما تحتاجني الآن، حاولتُ النهوض، جروح متفرّقة تنخر جسدي النحيل، يدي اليسرى لا أستطيع تحريكها، واليمنى تحتضن كتاب التاريخ، حمرة ممزوجة بالسواد أزعجت سكون خرائطه فلوثت مياهها الراكدة!

أشلاء مبعثرة، بنايات كاملة تساوت بالأرض، تُرى أين أمي وسط هؤلاء؟ وعدتها أن أكون قوية وألا أخاف، لقنتني الدرس جيدًا يوم أخذوا أبي، وضعت كفّها الحنون على قلبي:

«كوني قوية يا ابنتي، خُلقنا لنُنشِب أظفارنا في الصخور ولا نتألم».

فقدت أمي بصرها جرّاء آخر قصف تعرّض له بيتنا، لكنّها أبدًا لم تفقد بصيرتها، حافظتْ على عهد أبي، لم تستسلم رغم ما أصابها.

كنت كمن يسير في حقل ألغام، أرفع قدمي وأضعها بحذر شديد وأنا أتنقّل بين الحطام، ساق هنا وكف هناك، أصبحت الجثث قطعًا في كل بقعة منهن جزء، هل يحالفني الحظ لأجد أمي بخير وسط كل هذا الموت؟!

بعد وقت لا أدري مقداره، تعثّرتُ بقدمها، جمود أصاب وجهها الذي كساه الرماد، وضعت أذني على صدرها فسمعت نبض قلبها، كان ضعيفًا كعقارب ساعة أوشكت بطاريتها على الانتهاء، لكنه ينبض، رجلها تنزف بشدّة، أما ذراعها، يا الله .. ذراعها ليس هنا!

انهلت عليها باكية، لكنني سريعًا مسحت دموعي، ليطمئن قلبك يا أمي، ستكونين بخير، سيأتون لإنقاذنا، وتهبّ الجموع لانتشالنا من هذا الحطام، لماذا تنظرين إليّ هكذا؟ ألا تصدقين؟

كانت عيناها مغلقتين تمامًا، لكنني خِلتُها تراني وتتحدث إليّ!

ألا تذكرين يا أمي؟

ألا تذكرين حكايات أبي عن العرب والعروبة؟ الوحدة والهم الواحد الذي يجمع الأمة، طبعًا تذكرين، سمعتِها معي مرارًا، أذكر مرةً أثناء حكي أبي أن دمعات تحدَّرت من عينيه الضيقتين، وعندما سألته عن سببها تعلَّلَ بألم في عينه، لحظتها تبسَّمتِ أنتِ ابتسامة حزينة وتركتنا لتعدي طعام الغداء.

تعلمين يا أمي أنني أكره التشاؤم، ولا يطيب لي الاستسلام، لا تفقدي الأمل، سينتفض النائمون، سيهزم المحتلون ويولّون الدُّبر.

ازدادت ظلمة المكان مع دخول الليل، أصوات استغاثات يتزايد صداها، وقع أقدام تقترب من الركام، فرحتُ وكذا تهلّل وجه أمي، مدّ المغيث يده نحونا، في عينيه جبروت المحتل وخبثه، غير أنّ شارة أخرى تزيّن معصمه!

الكابوس

مهمّة ثقيلة كلَّفني بها رئيس التحرير، رجوته أن يسندها إلى آخر لكنه أصر!

ألم يجد غيري لهذه المهمّة؟ أم أنه يريد تعذيبي؟

في العاشرة صباحًا، كنت أقف أمام مستشفى ... برفح، لأسجل حوارًا مع الأسير المحرر (س. ل)، هكذا طلب أن يُكتب اسمه، بالأمس جمعت معلومات عنه، في بداية عقده الثالث، درس هندسة الحاسبات، وكان يعمل بمشروعه الخاص الذي ابتدأ العمل به قبيل العدوان الأخير ببضعة أشهر، رأيت صورة تجمعه بطفله الوحيد، كان الطفل صورة من أبيه.

في المشفى، سرتُ خلف إحدى الممرضات إلى حجرة قالوا: إن بها الأسرى الوافدين ع المشفى الأسبوع الماضي. خمسة أسرَّة صُفّت متتالية، على أولها يرقد أحدهم، الجراح في وجهه لم تدع من ملامحه شيئًا يبين، كتلة دموية في وسطها نقطتان غافيتان كأنهما عينان، كادت الممرضة أن تسمع شهقتي، كيف سأتحمّل النظر إليه والحديث معه وهذه حالته؟ لكنها تجاوزته، وبجانب السرير التالي توقَّفتْ.

أثناء عودة الممرضة إلى عملها، كانت الشهقة قد خرجت منّي بالفعل، ليس ثمّة تشابه بين الصورة وهذا الكائن الجالس أمامي، لا علاقة بينهما..!

عينان جاحظتان لا تطرفان كأنما يقف على أهدابهما الطير، جسد هزيل ويدان معروقتان كما لو كانتا لشيخ سبعيني، آثار الأصفاد بادية حول معصمه، قدم مبتورة والأخرى مليئة بالجروح، طافت عيني أرجاء الحجرة لترى ثلاثة آخرين، كانت إصاباتهم متفرّقة، لكنهم على أية حال أحسن حالًا من هذين الأسيرين.

حال وقوع عيني عليهم تذكرت.. تذكرت زوجي الذي أتم شهره العاشر مغيَّبًا في سجون الاحتلال، تُرى كيف صار؟

زفرة أخيرة أطلقتُها قبل بداية حواري معه:

- احكِ لنا عن تجربة الأسر؟ بدايةً كيف تم أسرك؟ وأين؟

كانت عيناه المفتوحتان على آخرهما مثبتتين على شيء ما في الفراغ، تعلقت عيني بفمه في انتظار سماع صوته، ساورني الشك، هممت بإعادة سؤالي، لكنه نطق أخيرًا:

كنت أمام بيتي أساعد جاري في لملمة أشلاء ابنه الذي استشهد برصاص قناص، فجأة وجدت نفسي مأخوذًا مع آخرين، لا ندري إلى

أين، نُقلنا في ناقلات عسكرية، كنّا بالعشرات متكوِّمين بعضنا فوق بعض كأكياس الطحين، اعتقدنا أنهم ينقلوننا إلى سجون الضفة الغربية، فإذا بنا نسمع أحد الجنود يقول لزميله بالعبرية:

«سنصل كتسيعوت بعد قليل».

فعرفنا أنهم آخذونا إلى سجن النقب الصحراوي، أو كما نسميه أنصار3.

كان أثناء حديثه، يلهث كمَن يصعد جبلًا، صوته ممزوج بشهقات متقطِّعة كأنه يقاوم البكاء، واصل حديثه:

كابوس، أقل ما يقال عما رأيناه أنه كان كابوسًا، الضرب العشوائي والتعذيب لا ينقطع حتى وصلنا إلى مكان الاعتقال، هناك جُرِّدنا من ملابسنا تمامًا، وأُدخلنا مجموعات عراة، ثم أطلقوا علينا الكلاب البوليسية، وبعد أن أشبعونا ضربًا ألقوا إلينا ملابس بلون رمادي، أدخلونا إلى كبينة، كان عددنا كبيرًا، ربما مئة أسير أو أكثر، في الكبينة حمام ومغسلة أيدي، يُسمح لنا باستخدامه في مدة لا تتجاوز الدقيقتين وإلا يتعرض المتأخر للضرب والإهانة، على الأسير أن يقضي حاجته وهو معصوب العينين مقيد اليدين في دقيقتين، دقيقتين فقط!

غلبه البكاء فانقطع صوته، انتظرتُ حتى يتماسك قليلًا، كانت يداه ترتجفان، كله كان يرتجف، مشوّش الذّهن، يتلفّت كثيرًا كمن

يتوقع صفعة تأتيه في أيّة لحظة، على صوت نشيجه فتح الرجل الراقد فوق السرير المجاور عينيه، الرجل صاحب الوجه الممسوحة ملامحه، لمعة في عينيه الضيقتين أربكتني، ربما أُجرى حوارًا معه اليوم أيضًا، سيفرح رئيس التحرير بإنجاز كهذا.

بعد دقائق عدت أسأل (س.ل):

- خلال فترة اعتقالك هل سُمح لك أن ترى أحدًا من أقاربك، هل كنت تقابل محاميك أو تتواصل معه؟

بعد لحظات صمت:

اعتُقِلتُ في تشرين الثاني أي منذ..

بسط أصابعه، نظر إليها ساهمًا، ثم أغمض عينيه، أعاد فتحهما والنظر إلى أصابعه المبسوطة، فقلتُ:

- خمسة أشهر!

نعم نعم، خمسة، لم أر خلالها النور إلا منذ يومين، ظللنا لفترة طويلة معصوبي الأعين، ورؤوسنا معلّقة بثقل تحت وهج الأضواء الكاشفة، أشكو الآن من نوبات هلع، أصحو ليلًا أصرخ وأحاول النهوض، أستفيق على صوت يخبرني أنه كابوس، مجرد كابوس، عندما سمعتُ اسمي في قائمة المفرج عنهم، اعتقدت أن الحرب

انتهت وأنني سأعود إلى بيتي، لم أكن أعلم أنني عائد إلى خيمة!

تعرفين لماذا أفرجوا عنّا؟ أفرجوا عنّا لأن السجون اكتظت وما عاد بها مكان يسعنا.

صمت هنيهة، ثم رفع رأسه ونظر في عيني مباشرة:

- هل لنا أن نتبادل الأدوار، وأسالكِ سؤالًا تجيبينني عليه؟

تلعثمتُ وجفَّ ريقي فجأةً، هززتُ رأسي، فقال:

- متى سينتهي هذا الكابوس؟ أريد أن أنام لدقيقتين، لدقيقتين فقط دون سماع صوت القصف!

كان ثباتي الانفعالي بدأ يذوب كقطعة ثلج، نظرتُ إلى الراقد على السرير المجاور، لا يزال ينظر نحوي وفي عينيه اللمعة ذاتها، لا أدري هل كان يحاول لفت انتباهي بينما ذراعه لا يعينه على الحركة؟ أم هو مجرد خيال سببه تلك اللمعة التي لا تزال تربكني؟

استطاع رفع ذراعه، تأكدت من إشارته نحوي، قمتُ إليه، كان رأسه قد انزلق قليلًا، عدّلتُ من وضعه، همس باسمي، نظرتُ إليه بدهشة، فأمسك يدي وأزاح عن صدره قميصًا رثًّا، أطلّتْ من تحته وَحْمةٌ على شكل نصف تفاحة، وَحْمَةٌ أعرفها، جيدًا أعرفها، هل يمكن ألا أعرفها؟

فتوى اغتصاب

كان الرجل الذي يرتدي جلبابًا رثًّا، ويتوكأ بيده المعروقة على عصا يابسة، يمر أمام مقهى أبي سالم، ولدى وقوفه عند الباب يوعز أبو سالم إلى صبيه فيحول الأخير دون دخوله، يحدث ذلك كل ليلة، لا الرجل ملَّ تكرار الوقوف، ولا أبو سالم تراجع عن الإيعاز لصبيه!

جاء الليلة كما يجيء دائمًا، ولما همّ صاحبنا بطرده، منعه أحد رواد المقهى، وطلب منه السماح للرجل بالدخول، فقد سمعه في مقهى آخر، يحكي حكايات طريفة تسلّي الناس وتؤنس ليلهم الطويل.

دخل الرجل، جلس على كرسي اختاره بعد ما طاف ببصره في أرجاء المقهى كله، كان الراديو ساعتئذ يبثُّ آخر أخبار أرض الزيتون، لم يكن مر على جلوسه بضع دقائق حتى توجّه إلى الناس متسائلًا:

هل سمعتم قصة (م.ع) قبل ذلك؟

تصاعدت همهمات الناس واستفساراتهم حول هيئته وسؤاله غير المفهوم، كان الإهمال باديًا على وجهه الذي لم يشم رائحة الماء لمدة لا يعلم أحدهم مداها، وجلبابه المرقّع الذي تستغرقه بقع متلاصقة متفاوتة الحجم، خفتت الهمهمات فجأةً فبدأ حديثه دون مقدمات:

مرة أخرى يحاول (م. ع) الانتحار، ومرة أخرى ينقذه الناس في اللحظات الأخيرة!

كان يصرخ فيهم:

كيف فعلتُها؟ كيف سمعتُ كلامه؟ أين كان عقلي؟

مذ حدث ما حدث وهو سائح في بلاد الله، لا يُعْرف له مستقر، يبحث عمن أغواه بفتوى كانت وبالًا عليه، ربّما عقدة لسانه تنفكّ حين يراه فيحكي ما حدث، وربما وقتها يقتله، هو لا يدري، مذ حدث ما حدث وهو لا يدرى.

يومها كانا عائدين والفرحة لا تسعهما بعد أن بشّرهما الطبيب بقدوم ولي العهد، كان الوقت متأخّرًا، لكن طقس آذار البديع جعل السير على الأقدام أكثر متعة، على حين غِرّة ظهر أمامهما قاطع طريق، كأنّ الأرض لفظته من باطنها، وفي لحظة كان قد طوّق الزوجة وثبّت السكين على رقبتها، صرخ الزوج:

- أرجوك اتركها، خذ ما تريد لكن لا تمسها بسوء!

قال وهو ينظر إلى الزوجة نظرة ذات معنى:

- سآخذ ما أريد وأذهب، لا أريد سماع نَفَسِك، وإلا ..

وأشار بالسّكين إلى رقبته مهددًا.

قرر الزوج أن ينقضّ على قاطع الطريق غير آبه بالنتائج، لكنه فوجئ بآخر يحمل مسدسًا، وجّه فوَّهته صوب رأسه، فشَلَّ حركته ..

ماذا يفعل؟ هل يغامر بحياته في سبيل خلاصها وليكن ما يكون؟ هل يجري؟ هل.. لمعت في ذاكرته فتوى سمعها من شيخ شهير ذات لقاء قديم:

صَوْن النفس يا ولدي مقدّم على صَوْن العِرض، إن رأيت يومًا مسلّحًا يغتصب زوجتك، اتركها له إن تأكّد لك أنه قاتلك، لأنه بذلك تكون الخسارة مضاعفة: اغتصاب وقتل!

يوم سمع هذا الكلام أظلمت عيناه، شعر كأنّ عفاريت الأرض جميعها تقيم مراسم جنائزها أمام عينيه، فكّر في مخاصمة مجالس الشيخ، لامه اللائمون، واتَّهموه بالحذلقة وادِّعاء العلم في حضرة العلماء!

ما الذي ذكّره الآن بذاك الشهير وفتواه؟

الآن مغموسٌ هو في قلب التجربة!

عيناها المرتجفتان كانتا تبحثان فيه عن نخوة الزوج وحميّة

الحبيب، تنتفض فرائصها في انتظار ردة فعله، طأطأ رأسه بينما نص الفتوى يجلل في أذنيه، وقدمه تتقهقر خطوتين للخلف!

بعد أن قضى قاطع الطريق منها وطره، ألقاها على قارعة الذل حيث الزوج الذي صان نفسه ينوح كالنساء، نظرتْ إليه نظرة لن ينساها طيلة حياته، قالت بصوت مذبوح:

- لا تقل لأحد حقيقة ما حدث، قل إنك هجمت عليه لتخلّصني، فقتلني ..

ثم أمسكت سكينًا، لا يدري من أين أتت بها، غرستها في قلبها دون تردد.

عضّ أنامله عجزًا وندمًا، كان يصرخ دون وعي كالمجاذيب. هام على وجهه ينادي باسمها تارة، وباسم الشيخ صاحب الفتوى تارة أخرى.

منذ تلك الليلة وهو يتنقل وراءه من بلد لآخر، وكلّما خاب في إدراكه حاول الانتحار، هذه المرة تحرّى جيدًا، سأل أنصاره ومريديه حتى عرف مكان درسه القادم، أخيرًا سيتمكن من رؤيته، ويخبره، لكن ماذا سيخبره؟ هل يقتله؟ نعم سيقتله!

وفي مكان المحاضرة، انتظر ساعة نزوله، ما إن اقترب من الموكب، حتى تلقفته أيدي الرجال الذين يحوطون الشيخ عن يمينه

وشماله، لم يشعر بشيء بعدها حتى استفاق بين يديه، همس إليه الشيخ الشهير:

- لماذا ترمي بنفسك في التهلكة يا ولدي؟

شعر بلسانه ينعقد من جديد، عقد بعضها فوق بعض، لم يستطع التفوّه بحرف، انفلت من قبضتهم، ولّى وجهه شطر البحر، وراح يطفئ نارًا تأكل قلبه، ترك نفسه لماء البحر تتسرب داخل أنسجته، ترك نفسه للبحر أبدًا..

بينما كان رواد المقهى مأخوذين بحكي الرجل، ارتفع صوت الراديو، كان الخبر العاجل عن آخر تطورات الوضع في فلسطين المحتلة، وتقرير عن أعداد الشهداء والضحايا.

قام الرجل متوكأ على عصاه، قبل تجاوزه باب المقهى، توقف أمام الراديو، ثم نظر إلى الناس:

حالنا مع فلسطين هو ترجمة حيّة لفتوى الشيخ الشهير؛ لأن صَوْن النفس أولى يا سادة!

أكمل الرجل طريقه إلى الخارج، غاب في الظلام لا يلوي على شيء، تاركًا روّاد المقهى ساهمين غارقين في خواطرهم.

أما زلت تسأل لماذا يا أندرو؟

لم أخبرها حتى الآن، ولا أدري متى أو كيف سأخبرها..

هي لا تفكّر مثلي، أعرف، أحببتها رغم كراهيتي لأصلها العربي، لكنني أثق أن حبّها لي سينقلب كراهية إذا ما علمتْ بجنسية أمي، لا أدري سببًا يجعلها تفكّر بهذه الطريقة سوي عَرَبِيّتها، تعيش في كندا وتعمل في أحد أهم المراكز العلميّة، لكن رؤيتها لبعض الأمور لا تزال بها نزعة تخلّف، أحببتها رغم ذلك، الحبّ لا يعترف بهذه الفوارق!

قصدتُ استثارتها يوم افتعلتُ حديثًا مع زميل فرنسي بالمركز، قلتُ تعقيبًا على بعض الأحداث في بلادها:

- غريب أمرهم العرب، لماذا لا يقبلون العيش في سلام؟!

نظر إليّ الزميل نظرة ذات معنى، ثم نظر إلي بيسان القاسمي، الفلسطينية التي أسرني جمالها الجبليّ الجامح كحصان اعتاد قطع اللّجام، وجه أبيض رُسِمت ملامحه بريشة فنان بارع، خصلتان من شعر فاحم تطلّان على استحياء خارج غطاء رأسها، نهد نافر يزيده أسود عباءتها إثارة، نظرتْ إليّ بعينين صاخبتين جاهدتُ كي أتحدّى

سحرهما وأركّز فيما تقول:

– لو أن شخصًا غريبًا كسر باب شقتك، قتل البابا واغتصب الماما، ثم ببلاهة طلب منك أن تعترف بوجوده، وتعامله كمالكٍ أصليّ للشقة وأنت مجرد ضيف، وكرمًا منه سيقبل بوجودك إلى جانبه حسب قوانينه هو، وتحت إدارته هو.

وهي تشير برأسها نحوي:

– ها ..قل لي، شو رأيك في هالحكي؟

فاجأتني جرأتها كما فاجأني جمالها اللا محدود.

لم أقتنع بمثالها المعقّد، سافرتُ مرّة رفقة أمي إلى تل أبيب، رأيت مدينة متقدمة، فقط بعض العرب هناك يصرُّون على إضفاء الرّجعية على المكان! لا أدري لماذا يحبّون إثارة المتاعب دائمًا؟

عليَّ ألا أنساق خلف مشاعري، وأتورَّط في علاقة غير متكافئة، جرَّبتُ تجاهلها، كانت تجاربي ناجحة، لكن في الاتجاه المعاكس، ازددت قربًا منها وتضاعف تفكيري فيها، حضورها طاغ، هي تكره إسرائيل وتصفها بالمستبدّة، كل ما في بيسان كان مستبدًّا، بحضورها يأفل نجم كل أنثى في المكان، صوتها يفنى أمام سحره أي صوت آخر

مهما بلغت أنوثة صاحبته، لم أستطع منع نفسي من الاقتراب أكثر واقتحام حصن جمالها المستبد.

دعوتُها إلى العشاء ذات ليلة، بعد جلوسنا عرفتْ بطريقةٍ ما أن مالك المطعم يهوديّ، وجدتها تقوم منصرفة، أوقفتها، قلت إن المطعم يقدم جميع الأصناف وإنها ستجد طعامًا حلالًا، بل إنه يقدم من الأصناف ما تأكله من يد أمها، لكنها أصرّت على الذهاب:

– يكفي أن يكون صاحبه إسرائيليًّا، لو قدم لي طعامًا من الجنة، لا أريده!

سألت نفسي:

«عندما تعرف أن أمي يهودية، ماذا ستفعل هذه الفلسطينية التي أسرتني دون حرب؟»

تمنّيتُ لو أسألها عن سر هذه الحساسية تجاه كل ما هو يهودي، يتعاملون بأريحية تامة مع الإنجليزي والأميركي و.. ما الفرق؟

أبي إنجليزي الجنسية، أم أمه من أصول يهودية، لكنه إنجليزيّ خالص، ذلك لن يشكّل عقبة من وجهة نظر بيسان، أما كون أمي من أسرة يهودية متدينة، ذلك بلا شك سيزعجها، لكن .. إلى أي مدى؟

زميلنا العربي الذي لا أطيق رؤيته لخمس دقائق متواصلة يمتعِض كلَّما رآنا معًا، أشعر بغيرته الحمقاء على بيسان، هو مرتبط عاطفيًّا بزميلة كنديّة، فما معنى غيرته إذًا؟ الإجابة بسيطة: التخلّف والحمق!

كل من عرفتهنَّ قبلها حرّكن شهوتي وشهيّتي كرجل، وحدها بيسان أثارت كل ذرة في كياني، جمالها الخارجي أثارني في البداية أعترف، لكن روحها تولَّت إسقاط آخر حصوني، كلها قد استفز كلي، جرّبت معها ديمومة الإحساس البكر، كانت بيسان بمذاق أول كأس، وأول قُبلة، وأول ليلة مع امرأة.

فقط لو تُغيّر بعض آرائها التي تعكّر صفو هذا الجمال، سأتولّى ذلك فيما بعد. كنت أستنكر سقوطي في فخ الحب، حتى جاءت بيسان وأسقطت جميع رايات الرفض التي رفعتها في وجه أمي كلما طاردتني بفكرة الزواج. ساعة أخبرتها بحبي لفتاة عربية ورغبتي في الزواج منها ثارت، وصفتني بالوضيع الذي يحطّ من قيمته، وعندما علمت أنها فلسطينية صُدِمت، لكن عدائيتها للفكرة قلّت، ثم اختفت تمامًا..

«أرأيتِ يا بيسان إلى أي حد أمي متفهّمة؟ لماذا لا تكونين مثلها على الأقل؟!»

سأخبرها، لكنني أفكّر في ترتيب لقاء يجمعها بأمي أولًا.

في الصباح، انتظرتُ وصولها، لم تأتِ، ثم عرفت أنها طلبت إجارة بالأمس، هاتفها مغلق، كدت أجن، أين اختفت هكذا مرة واحدة ودون أن تخبرني؟

بدأت أشك في زميلنا العربي الأحمق، هل عرف شيئًا عن جنسية أمي فأخبرها؟ أعتقد أنه لن يُكذّب خبرًا، سيندفع نحوها لاهثًا كمن اكتشف سرًّا عسكريًّا، كيف لا وهو عربيّ؟ هل يليق به ألا يفسد ذات بيننا؟

اختفت بيسان!

كل حساباتها على (الميديا) مغلقة، حتى هذا الأحمق لا يعرف أين ذهبت!

وبعد أيام، نَقلت وسائل الإعلام أخبارًا عن أعمال عنف وتخريب في إسرائيل على أيدي العرب الذين لا يملون إثارة المتاعب، تطوّر الأمر وبدأ الحديث عن وجود قتلى ومصابين وأسرى، ثم أصبحت حربًا.

«لماذا يا بيسان؟ لماذا كل هذه الكراهية؟ تقتلون بلا رحمة وتختطفون الأبرياء!»

بعد شهر من بداية الأحداث تلقَّيتُ منها رسالة:

أندرو.. كيف حالك الآن؟

هل تسير وتيرة حياتك بشكل طبيعي؟

تستيقظ في السابعة، تمارس روتينك اليومي قبل الذهاب إلى العمل؟ تأخذ قهوتك الصّباحيّة، وتستمتع بنَهْفَات الأصدقاء؟

بالطّبع تتابع ما يحدث، هل لا زلت ترى بعين حولاء لا تعرف الحقيقة؟

كنت دائمًا تسأل: لماذا؟

لماذا لا تقبلون التعايش؟ لماذا تكرهونهم؟ لماذا..لماذا..

أريدك فقط أن تملأ عينيك بهذه الصور التي أرسلتها لك، أرجوك لا تغمض عينيك، أعرف أنك مرهف الحس، لكن رجاءً تأمَّلها جيدًا، لعلك ترى واحدًا بالمائة مما أراه كل ثانية في بثّ حي. وأجبني أنت عن سؤالي هذه المرة:

هل من يملك القدرة على إحداث هذا الخراب إنسان يمكن التعايش معه؟

هل من يستطيع ذبح آلاف الصغار والكبار بهذه الوحشية يعرف

سلامًا أو يفكر في تعايش؟

لا ترسل لي إجابة لن أتمكّن من قراءتها، لا ضمان هنا لشيء، فقط أجب، ودع ضميرك يستمع.

لقد ماتت أسرتي دفعة واحدة يا أندرو، بناية كاملة يقطنها مائة فرد، رحلوا في غمضة عين كفئران تجارب، ربما لو كانوا كذلك لأشفقوا عليهم!

أتذكر الورد المزروع في حديقتنا؟

أريتك صورته على الهاتف مرة، قلت لي يومها:

«قريبًا سنلتقط لنا صورة إلى جانبه».

مات الورد في حديقتنا يا أندرو، ماتت الحديقة كلها، وانمحى البيت في لحظة كانت مثل كابوس!

أتذكر ابن أخي سِنان صاحب السبع سنوات؟

كنت تحبّ رؤية مقاطع الفيديو خاصته، اختصّك بواحد منها قبل ذلك، قلت لي:

«سننجب ابنا يشبهه، ويفوقه شجاعة في الوقوف أمام الكاميرا، لأن أباه سيكون أندرو وأمه بيسان!»

تأمّله جيدًا، بُترت ساق سِنان اليمنى، وفقد إحدى عينيه، فقد أيضًا أمه وأباه في القصف، بقي سنان بلا أب وأم وبلا ساق وعين، وبقيت أنا وحدي، لم يتبق لي سوى ما بقي من سِنان..

أما زلت تسأل لماذا يا أندرو؟

حتّى مطلع النّصر

أحلم بالسَّفر بعيدًا، بالعيش كأيّ شاب، أتمتّع بحياتي قبل أن يأكل العجز قلبي، فيما لا يقدر كمال على ترك البلدة يومًا واحدًا كسمكة لا تقوى على العيش خارج الماء، ما الذي يعجبه هنا؟ هل هذه حياة؟ عجزت عن إقناعه بأنّ العيش في أوروبا أو الخليج هو الحياة بعينها، سافر أحد أصدقائنا إلى الكويت، حالفه الحظ في الحصول على عمل، يعيش الآن عيشة هنيّة.

كنا نجلس في حاكورة[1] دارهم، تحت شجرة التوت التي كنّا نستظل في فيِّها الوارف، وكمال يدندن (موال توتة الدار) بصوته الذي يسكنه الشجن:

- يا توتة الدار صبرك على الزمان إن جار.
- لا بد ما نعود مهما طوّل المشوار يا يا ويلي.
- يا توتة الدار حلَّفتك بفرقتنا.
- خلي جناك حمم على الغاصب الغدار يا يابا.

---

(1) قطعة أرض تحبس لزرع الأشجار قرب الدّور.

-اووف اووف اووف ..

- لا وفوق كل هاد رايح تحب مشان تزيد الطين بلّة!

ابتسم:

- طول ما فينا نَفَس مش رح نبطل نحب الحياة ..

تنهّدت بنفاد صبر وأنا أملأ الكوب من الخابية[1] المغطاة بغطاء خشبي، وقد دُفِن جلّ جسدها في الأرض:

- لمتى بدنا نضيّع عمرنا هون يا كمال؟ لمتى؟

- حتى مطلع النّصر يا صديقي، حتى مطلع النّصر!

أُنقّب في كل زقاق عمَّن يؤمّن لي منفذًا للفرار إلى أوروبا أو الخليج، كلّما انفتح سبيل أُغلق في وجهي كلاعب دومينو سيء الحظ. ويوم وجدته أخيرًا، كان غريبًا عن القطاع، من أولئك الذين لا دين لهم إلا الدولار، وعدني بتأمين تأشيرة إلى ألمانيا بعد السفر إلى مصر.

- المطلوب ألف وخمسمائة دولار فقط.

ابن العاهرة! يقول (فقط) دون حياء، كما لو كان المبلغ قليلًا!

---

(1) الزير الفخاري.

حتى الطريق إلى مصر ينغلق في وجهي، الموظف كأنه يتقصّدني، كلما ذهبت للسؤال عن وثيقة السفر التي قدمت أوراقها منذ شهرين لا أجده.

يعيد كمال ويزيد:

– ولمن تترك الميدان يا تامر؟ خُلِقت أكتاف الرجال لحمل البنادق، فإمّا عُظماء فوق الأرض أو عِظامًا في جوفها.

يملأ دماغه بما يقرأه لغسان وغيره! هل يظنّ نفسه أكثر وطنيَّةً منّي؟

استشهد أبي وقبله جدّي، هو يعتقد أنني هارب من الموت، لا لا أخشى الموت، أنا.. لا أخشى شيئًا!

مِمَّ أخاف إذا؟

أطلب الفرار الى أيّ بلد أوربي وكأنني سأُنصّب زعيمًا هناك! أعلم.. أعلم أنني ربما سأُذل، قد أغسِل أطباقًا، وآكل من القمامة، لكنني سأبتعد عن ..

عن ماذا؟

إن لم يكن هروبي خوفًا من الموت الذي اختطف أهلي واحدًا

تلو الآخر، فماذا عساه يكون؟

عليَّ أن أعترف، لنفسي على الاقل!

حتى أمّي تريد منّي البقاء هنا، تطلب مني حمل بندقيّة أبي وجدّي، ماذا لو لم أكن ابنها الوحيد الذي يُؤنس وحشتها في مخيم لا حياة فيه؟!

يقولون الوطن، الوطن، عن أيِّ وطن يتحدثون؟

وطن مهزوم عشنا ندفع ضريبة انتمائنا إليه دمًا، تشبَّعنا بالهزائم، يكفي، طفح الكيل، أريد أن أتنفس بلا خوف ودون حساب كبقية خلق الله، هل صعب؟

في مساء من أمْسِيَة حزيران، جاءني كمال، كان وجهه أصفر كحبّة ليمون ناضجة، أعطاني ظرفين مغلقين، الأول لأريج، حبيبته التي لا يستطيع الزواج منها، لكنها تنتظره، والثاني كتب عليه اسمي، غريب. في كل مرة يخرج لعملية فدائية، يعطيني ظرفًا واحدًا لأريج!

- لا تفتحه إلا بكره الصبح.

احتضنني، نور انبعث من عينيه البنيّتين، وشيء ما في حضنه قال لي: لن تراني ثانية، أحببت تغيير جو الكآبة:

– رح ترجع متل القرد زي كل مرة، بس ساعتها مش هاعطيك الظرف الثاني..

ضحك كمال بملء فيه، علت ضحكاتنا وتعانقت، لمرة أخيرة، تحت شجرة التوت التي شرعت ثمارها في النضج.

لم يعد كمال، كتيبة كاملة كتبت صفحة مضيئة في طريق النصر الذي عاش ينتظر مطلعه، وفي الظرف الذي أعطانيه، وجدت مبلغًا من المال، مع كلمات لمحمود درويش، طالما تغنّى بها:

– أنا شاهد المذبحة

– وشهيد الخريطة

– أنا ولد الكلمات البسيطة

– رأيتُ الحصى أجنحة

– رأيتُ النّدى أسلحة

– عندما أغلقوا باب قلبي عليّ

– وأقاموا الحواجِز فيّ

– ومُنع التجوّل

- صار قلبي حارة

- وضلوعي حِجَارة

- وأطلّ القرنفل.

«أتعرف ما هو الوطن يا تامر؟ الوطن هو ألا يحدث ذلك كله!»

«الآن يا تامر، الآن سقطت ورقة التوت»

انتفاضة الزيتون

- ما تعيطش يا جدو، ما رح يقدروا يطلعونا من بيتنا!

أمسكت جملتها بخلايا دماغي، هزّتها بعنف، جرجرتني خلفها إلى زمن كنت فيه بعمر حفيدتي ..

- ما تعيطش خليك زلمة، أوعى تعيط، أمك شهيدة!

يستنكرون عليّ الدموع، أنا الذي لم أكمل العاشرة، يطلبون مني أن أصير (زلمة)!

قالت أمي:

- بعد أسبوعين عيد ميلادك، هاعملك كل اللي بتحبه..

ستعدّ قالب الكيك بالليمون، وتشتري البالونات الملوّنة، سيغامر أبي بزيارة قصيرة، لم نره منذ ثلاثة أشهر، لن أتمكن من دعوة أصدقائي، سنحتفل في باحة البيت بجوار شجرتي، شجرة الزيتون التي تشاركنا أفراحنا، أبي وأمي يعتبرانها ابنهما الثالث، أما بالنسبة لي، فهي تشبه أمي كثيرًا..

الاعتناء بالشجرة مهمّتي، علَّمني أبي جيدًا، أخذت عنه حب الأشجار، يقول أبي إن الأشجار عندما تراني تورق وتبتسم، وترى أمي حياتنا دون الأشجار خالية من الحياة.

كنت وأخي نَعُدّ الأيام على أيدينا في انتظار عيد الميلاد، أخي مذ تعلّم الأعداد في الروضة صار ينافسني في عدّ الأشياء، نعد الأيام التي نفتقد فيها أبي، مذ أصبح مطلوبًا من جنود الاحتلال تناقصت أوقاته بيننا، نعدُّ ابتسامات أمي في غيابه، تكاد تنعدم، ونعدُّ ثمار الزيتون، لا نفلح في عدّها، الثمار في شجرتنا لا يمكن عدّها.

جاء أبي ليلتها ملتحِفًا بالظّلام، وفي الصباح وصلت هديته، كانت درّاجة زرقاء صغيرة، لم أستطع منع نفسي من تجريبها فورًا، أما أمي فأهدتني شتلة لشجرة ليمون سأزرعها وأخي غدًا في حديقتنا..

كثمرة لم تنضج قُطِفت سعادتنا، في لحظة تشبه البرق، كسروا البيت يطلبون أبي، فَزِعنا، أمسكوا بأمي، نظر إليها الجندي نظرةً لا أنساها، صرخ أبي في وجهه بلغة لا أعرفها، قهقه الجنديّ، كم كانت ضحكته قبيحة! طرح أمي فسقطت صارخة، جرى أبي نحوها، جريتُ وأخي أيضًا، سبقتنا رصاصة الجندي، استقرت في منتصف رأسها، أمي ممددة بلا حراك، وأبي يحاول الإفلات من قبضتهم، ينظر نحونا تارةً

وتارةً نحوها. مشهد لا يزال حيًّا بتفاصيله يرتع في ذاكرتي، ماتت أمي، وأُخِذ أبي إلى حيث لا نعلم..

كنت أرتجف، بينما يبكي أخي ويصرخ، والجارات يهدهدن فجيعتنا. صنعوا قبرًا لأمي، كان قبرًا ضيقًا لن يسعنا معها. الجارات قضين بعض الليل معنا ثم ذهبن، ظلت إحداهنّ، ذهبت عندما بدأ أطفالها في الصراخ، نام أخي عندما تعب من البكاء، وبقيت وحدي أرتجف محاولًا استيعاب ما حدث، كيف تحوّل حفل ميلادي إلى حفل للفقد؟ حفل فقدنا فيه أبي وأمي دفعةً واحدةً!

وحدها شجرة الزيتون ظلت ساهرةً ترعانا، سمعتْ صرخة أطلقتُها رغمًا عني، خِلْتها تمدّ أحد أغصانها نحوي، طبطبت على كتفي، شقّت صدري ونثرت بعض ثمارها داخلي، شتلة الليمون كانت بقربي أيضًا، أمسكتْ بيدي، نهضتُ معها، وفي مكان يناسبها بالحديقة قالت: اغرسني هنا.

– لا أحد يموت من الجوع يا ابني، ما شاء الله الزيتون عندكم لحاله بيكفي، بيقولوا في المثل (الزيت عامود البيت) و(الخبز والزيت سبعين في البيت).

نعم هكذا يقول المثل، وهكذا كانت أمي تقول، لكن مثلًا آخر

نسيته الخالة أو ربما تناسته (اللي إمه في البيت بوكل خبز وزيت)!

لم تكن أمي في البيت لكننا أكلنا خبز الجارات وزيت شجرتنا، كانت ثمارها غزيرة، أكلنا زيتها وزيتونها، وبعنا منه أيضًا. تحت ظل الزيتونة عشتُ وأخي، وكانت شتلة الليمون تنمو في بيت به (رجلان) وشجرة زيتون.

موسم القِطَاف كان عيدًا في البلدة كلها، يخرج المزارعون لقطف الزيتون، وفي بيتنا يأتي الجيران لمشاركتنا الفرحة، الجارات يصنعن مع أمي خبز الصاج، وأبي يغنّي ونحن نردد خلفه:

«يا محلاك يا زيتون بلادنا..»

قطفنا الزيتون يا أمي بدون خبز الصاج، بدونك وبدون صوت أبي..

الزيتونة، كأم حنون كنت أشكو لها، وكأم حنون تنجح في هدهدة آلامي، شكوت لها رحيل أبي وأمي، شكوت لها قسوة الحياة على يتيمين ما لهما من أهل، شكوت لها أخي الذي تركني واختار السفر، وها أنا أشكو لها عدوانًا غاشمًا يجبرني على ترك بيتي وتركها ..

رأت حفيدتي دمعة تتحدّر من عيني:

- ما تعيطش يا جدو ما رح يقدروا يطلعونا من بيتنا!

غدا هو آخر أيام المدة التي حددوها. طلبوا مني إخلاء البيت الذي لم أعرف لي مأوى غيره طوال سبعين سنة.

أأترك بيتي؟

وأشجاري؟

والزيتون؟

أتنفصل الرُّوح عن الجسد بغير الموت؟

لجاري حقل زيتون، أحرقوه أمس، وقبله اقتلعوا أشجارًا كثيرة، مؤخرًا عمدوا إلى إغراق الشجر بالمياه العادمة ورش مواد سامة على جذور الزيتون ..

شكوت لها وكعادتها استمعت إليَّ، وبثَّت الطمأنينة في رُوحي ..

في الصباح، أمسكتُ بيد زوجتي، تجاوزتِ الستين بخمس سنوات عجاف، تتقدمنا ابنتي وأطفالها الثلاثة، أمام شجرة الزيتون اختلّ توازني، لم أستطع التقدم خطوة، شعرت باختناق كأن الأكسجين نفد من الفضاء فجأة، كنت أهذي:

«لا تُسقطوا غصن الزيتون من يدي!»

ثم غبت عن الوعي.

رأيتها هناك، حالة استنفار أصابت الأوراق، الأغصان والجذع، ثم امتلأت باحة البيت بأشجار زيتون، كثيرة كانت وغاضبة، وعند بزوغ الفجر، صرخت الشجرة بقرار أخذته جميع الأشجار:

«سننتفض، نعم لا بد من انتفاضة، انتفاضة الزيتون ..»

هل كان حلمًا؟

غداً تغرد العصافير

الآن رأيتُهم، لم يتغيّب منهم أحد، وجه أمي أصفر واجم، البسمة التي كانت جزءًا منه فارقته، أما عينا أبي فلم تكونا بمحجريهما، إخوتي ينتحبون، أصدقاء طفولتي ممزقة ملابسهم، وكل قاطني البناية التي أضحت عدمًا بعد اصطيادها بصاروخ لعين.

فشلت حقن المهدئ في تسكين جراحي، وغرقت في غيبوبة بحجم مصيبتي..

* * *

تقول صديقتي:

«لا تخسري قلبًا يحبك..»

وهل أملك رفاهية الحب يا صديقة؟ أعيش في دار ليست داري، وبين أناس غير أهلي وإن عاملوني كابنتهم، الحب للخالية قلوبهم من أوجاع تعصف بهم ليل نهار، لمن خلا باله من هموم غربة تأكل الروح قبل الجسد.

«الحب لا يعترف بكل هذا»

بل عليه أن يعترف، عليه أن يعترف وعلى مازن أن يُقدّر.. ويبتعد.

أنا أيضًا أحبّه، أعترف.. لكن ما الفائدة؟ ستنتهي قصتنا ككل جميل في حياتنا عمره قصير.

«سأسافر معكِ، نعيش معًا هناك، ألا يرضيكِ هذا..؟»

لا يرضيني يا مازن!

ليس منطقيًّا، وما ذنبك أنت كي تحيا في بلد يصافح أهله الموت كل يوم، هل هذا جزاء والدتك التي فتحت لي قلبها وبيتها؟

«احلمي يا بنتي .. احلمي، لو بطلنا نحلم نموت!»

أحلم يا صديقتي، هل يجدر بي ألا أحلم؟ إنني أقتات الحلم خبزًا كل يوم.

أحلم بطفلة يعبث هواء نيسان بشعرها، وهي تلعب (الحجلة) تحت شجرة زيتون أمام بيتها في حي الزهراء، وفوق الشجرة يعزف الحسون مقطوعة رائعة. أحلم بصبية تسقي زهورها حُبًّا فتنمو مزينة شرفة حجرتها، أحلم بيوم يُقبر فيه الخوف، تنطلق الأفواه، وتتحرر الأوطان من الذل، أحلم بيوم أتنفّس فيه هواء القدس خاليًا من رصاص المحتل.

ينتظر أبي اليوم الذي يناديه فيه الناس (أبو الدكتورة).

«متى بشوفك دكتورة كبيرة يا عيون بابا..»

هانت يا أبي ..

بضعة أشهر ويتحقّق ما تنتظره، بتخرج ابنتك من طب قصر العيني بجامعة القاهرة.

عندما مرض جارنا (أبو عماد) الإجازة الماضية، كتبت له علاجًا نفعه وقام الرجل يهرول كالفرس بعد بضعة أيام، فرح أبي يومها، رأيت رأسه يرتفع عاليًا، وسمعته يقول مباهيًا:

«بنتي دكتورة رغد رح تفتح عيادتها قريبًا، هون في هالمنطقة هاي رح ابني العيادة طوبة طوبة بيدي..»

غزة، الإثنين، 9 تشرين الأول 2023م

- اليوم انتهى كل شيء يا مازن، انتهى كل شيء!

- يا رغد، ربما اليوم بدأ كل شيء!

أشعل العدوان نيرانه التي أكلت بلدتي، أنظر إليها في الصور فلا أعرفها، أصبحت أطنانًا من الأنقاض، تحت ركام بيتنا في مدينة الزهراء جنوب غزة فاضت أرواحهم، أبي، أمي، وخمس عشرة زهرة قطفت

من بستاني دفعة واحدة، لأصبح بعدها وحدي بلا أهل، بلا دار أرجو العودة إليها!

يقول لي مازن في كل زيارة بالمشفى:

«لا تحزني، غدًا تغرد العصافير يا رغد..»

أي عصافير يا مازن؟

مات كل من أعرف.. مات أهلي وأصدقائي.

– الأمل، تمسكي دائمًا بالأمل..

الأمل، أحاول عقد صفقة معه لكن محاولاتي فاشلة كلها، متناقضان نحن لا قواسم مشتركة بيننا، أما مازن فمتسربل بالأمل دائمًا، مذ عُقِد بيننا بميثاق غليظ وهو يحاول نقل العدوى إليّ حتى فعل.

غزة، تشرين الأول 2030م

يتهادى عبير الزهور من شرفات البيوت نقيًّا لا تشوبه شائبة، يلعب الأطفال مطمئنين في طريق محوط بأشجار الزيتون، وهناك فوق فروعها .. تغرد العصافير..

وجه آخر للطوفان

مجموعة قصصية

أسماء عبدالراضي

مجموعة "وجه آخر للطوفان" باقةٌ من أندى المشاعر الإنسانية وأخصبها وأنبلها؛ ضمَّتها الأديبة "أسماء عبد الراضي" بموهبة بيِّنةٍ جليَّةٍ؛ تتعرَّض بها لنفحة الطوفان التي أشرقتْ على صفحة أيامنا، لتميز الخبيث من الطيِّب؛ فتمَّ لها المرادُ مُوفَّقةً، فكانت حقًّا وجهًا آخر لطوفان جارف يشمل ضمائر الأنقياء في كل صقع ومِصر. فكأنَّ رُوح التوفيق قد تلبَّستْها فأنطقتْها ما رامَ الجميعُ الإبانة عنه، وذمَّ ما أراد المُرجفون التنفير منه.

"وجه آخر للطوفان" اسم مِصداق مُسمَّاه؛ فباقة القصص المُودَعَة فيها تعتمل بأعمق ما في الطوفان من مشاعر، وأسمى ما فيه من غايات، وأنضر ما فيه من آمال، وأنصع ما فيه من وجه الحق الذي لا يَضِيرُهُ أيُّ تشغيب ..

وضعتْ فيه "أسماء" قلائد التقليد وعوائقه؛ وتتبَّعتْ فيه مشاهد الطوفان في عفوِ خاطِرٍ، وصدقِ تلهُّفٍ، ورُسُوخِ عزمٍ؛ حتى يستقرَّ في روع قارئها سيرُهُ وسط الجموع بين حطام الصريم!

HEKMAH YEMANYA

9 786259 497099